

تأليف

سعيد أحمد حسن

ليسانس آداب ـ جامعة عين شمس

دبلوم عالي في علم المكتبات والتوثيق ـ الجامعة الأردنية

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م



الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م

الرقم المتسلسل (١٠٩)

دار الفرقان للنشر والتوزيع

عمان / جبل الحسين / شارع خالد بن الوليد

تلفون ٦٦٠٩٣٧ ص ٠ ب (٩٢١٥٢٦)

الطابعون

مطبعة النور النموذجية

☎ ٨٤٣٧٧٠

ص.ب ٩٢٥٧٠١

اهـــــداء :

- الــى والــدى وأمــي .
- الــى أخـــي أحمد .
- الــى جميع الزملاء المهتمين بعلوم المكتبـات فـــــــي العالـم العربـــي والاسلامـي .

" بسم الله الرحمن الرحيم "

تمهيد

ان تاريخ المكتبات التي حوت التراث العربي والاسلامي ، هو تاريخ للفكر الانساني الاسلامي في مسيره ومصيره ، ذلك أن المكتبات -عبر العصور المختلفة - كانت ولا زالت تحفظ تراث البشرية وتحافظ عليه وتقدمه الى الأجيال المتلاحقة .

والكتاب الذى أتشرف بتقديمه الى اخواني وزملائي المهتمين بمعرفة تاريخ المكتبات عبر العصور الاسلامية ، قد عالج جزءا من هذا الموضوع .

وهذا الكتاب هو الكتاب الثاني الذى أقدمه للقارىء العربي ، بعد أن قدمت له الكتاب الأول " مائة سؤال عن خدمة الاعارة في المكتبات " والذى نال تقدير الزملاء والمتخصصين في علم المكتبات ، لما وجدوا فيه من سهولة الأسلوب في معالجة الموضوعات المختلفة التي تناولها .

وأتقدم بهذا العمل الى كل الزملاء العاملين في حقل المكتبات راجيا أن يحوز على ثقتهم التي أتمناها دائما ،ومرّحبا بكل نقد بناء هادف يمكنني من السير الى الأمام من أجل خدمة هذا العلم الجديد في عالمنا العربي .

والله من وراء القصد ،،،

المؤلف

سعيد أحمد حسن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد :

ليس للحركة الفكرية لدى أمة من الأمم منبثق خاص تتدفق منه تدفق الينابيع من جوانب التلال . بل هي كسيول الأودية تمدها المياه القليلة المتحدرة من هنا وهناك فلا تلبث أن تصير عجاجة شديدة الشكيمة .

كذلك حياة العرب الفكرية كثيرة الأصول متشعبة الروافد وهيهات أن نحاول الآن البحث عن كل أصل وكل رافد منها . فانها متصلة بظلمات يتيه فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي . على أننا يجب أن نلقي نظرة على الماضي العريق في القدم لنطلع على بعض العوامل التي كان لها يد في ترقية هذه الحركة الفكرية العربية .

وأمتنا العربية الاسلامية التي كان لها دور أساسي حاسم في تطور الحضارة الانسانية - وأسهمت أروع اسهام - في تطور هذه الحضارة وفي اغنائها أولت المكتبات ما تستحقه من رعاية واهتمام وكان ذلك ثمرة من ثمرات الاسلام ، وحضه على العلم دليل على ذلك . ان البلاد الاسلامية آنذاك كانت كعبة وضّاءة في العلوم والفنون ، والآداب ، والتسامح والرخاء والتقدم في جميع حقول المعرفة الانسانية ومن بينها المكتبات .

ان تاريخ المكتبات جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية والفكر الاسلامي : ارتقت بارتقائه وساعدت على ازدهاره ونضجت معه وانحطت بانحطاطه .

ولا غرو في ذلك فالاسلام العظيم دعا الى المعرفة والى التعلم والى انارة العقول بالقراءة والكتابة ، وان أول ما أوحى به الله سبحانه وتعالى الى عبده ورسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) هو القراءة والتعلم في قوله تعالى :
" اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم " . والآيات والأحاديث التي تؤكد على العلم والتعلم كثيرة ومتنوعة .

ان تاريخ الكتب عند المسلمين مهم جدا وأساسي لمعرفة تطور المعرفة الانسانية عندهم ، ذلك أنه لم تتفوق على المسلمين أمة من الأمم في حبهم للكتب والعناية بالمكتبات والمعرفة عامة . والمكتبات من أهم وسائل نشر المعرفة على مدى العصور وقد انتشرت المكتبات في الاسلام انتشارا واسعا ، وهي وان كانت ثمرة من ثمار الحضارة العربية الاسلامية الآ أنها تعكس في تاريخها هذه الحضارة التي كانت هي نفسها ثمرتها وأن الأطوار التي مرت بها هي أطوار الحضارة الاسلامية بشكل عام .

هذا ويعد العصر العباسي عصر الابداع في الحضارة الاسلامية وفيه نضجت الحضارة الاسلامية وأينعت وآتت أكلها وزخرت البلاد الاسلامية بالعلماء والتلاميذ والمعاهد والمدارس

والأبحاث في كل أنواع المعارف الانسانية . وكان للمكتبات من ذلك نصيب موفور اذ تبارى الخلفاء والأمراء والأفراد والوزراء والحكام والسراة في العناية بالمكتبات وفي تشجيعها ، ونجد في هذا العصر جميع أنواع المكتبات وأعني بذلك المكتبات الخاصة التي يملكها الأفراد والمكتبات الخلافية أو مكتبات الدولة (أى المكتبات الرسمية) التي تبنيها الدولة والمكتبات الملحقة بالمساجد والمعابد الدينية والمكتبات العامة التي تفتح أبوابها لجميع الناس والمكتبات الجامعية والمكتبات الملحقة بالمدارس والمكتبات الأكاديمية والمكتبات الملحقة بالمشافي والمارستانات وغيرها . ولعل أهم ناحية من نواحي هذه المكتبات هي الأهمية التي كانت تحتلها في حياة المسلمين العامة فلم تكن المكتبة مكانا مملوءا بالغبار لا يقصدها الآ بعض الشيوخ ، على العكس من ذلك كانت مركزا يفيض بالحيوية ويقصدها البحاثة والطلاب من كل مكان وكانت الحياة الاجتماعية في البلد الذى تحتله كما نفهم من تصوير الحريرى لمكتبة البصرة التي كان يصفها بأنها كانت مركز البلد ومجمع السراة فيها .

هذا وقد كانت المكتبات الاسلامية منظمة تنظيما علميا وتخدم جمهور المطالعين بكفاءة ويسر .

ان تاريخ المكتبات يكوّن جانبا مهما في تاريخ علوم المكتبات ، بوجه عام . فقد عرفت المكتبات منذ القدم في الشرق القديم في المعابد . وكذلك أنشأ البطالمة مكتبة الاسكندرية

الشهيرة . وفي العصور الوسطى وجدنا خزانة الحكمة في بغداد ودار العلم في القاهرة . كما أسست مكتبة عظيمة في قرطبة بالأندلس .

وهذه المكتبات وغيرها نعرف عنها الشيء الكثير ، فقد كتب العلماء في الشرق والغرب البحوث القيمة في تاريخ هذه المكتبات ونظمها وما آلت اليه في آخر الأمر .

والواقع أن انشاء المكتبات في الشرق العربي الاسلامي قد سبق اكتشاف العالم الجديد في سنة ١٤٩٢م ، فان أمريكا لم تقم فيها المكتبات الآ منذ ١٦٣٦م (مكتبة هارفارد وبيل) ولم تبلغ مركز الصدارة في النهضة المكتبية الآ في القرن الحالي على حين كان لنا في الشرق العربي في كل من العراق ،والشام ومصر خاصة ، بل وفي الأندلس الاسلامية مكتبات بالغة الازدهار والتقدم وخاصة في المدارس والكليات الجامعية في عصر المماليك في الوقت الذى اقتصر فيه وجود المكتبات في أوربا على الأديرة بكتبها الدينية الخاصة بالمواعظ والصلوات ، والقانون الكنسي واللاهوت ، ويقول آدم متز " ان مكتبة الكاتدرائية في مدينة بامبرج لم يكن بها الآ ستة وتسعون كتابا فقط". ولم يكن غيرها من الكاتدرائيات والجامعات الاوربية الناشئة تحوى الآ القليل من الكتب العلمانية مثل كتب الطب والمنطق والفلسفة التي أخذوا معظمها عن العرب ترجمة أو تأليفا عن طريق صقلية والأندلس .

وفي كتابنا هذا عن الماضي العريق - ماضي أمتنا العربية الاسلامية الزاهر الحافل بالتطور والازدهار والعلم والتعلم والمعرفة نحاول التعرف على أكبر عدد من مكتبات أجدادنا على مختلف أنواعها عبر العصور الاسلامية المختلفة .

وسنتحدث بشيء من التفصيل عن أنواع المكتبات التالية :

المكتبات الأكاديمية

المكتبات الخاصة

المكتبات الخلافية

المكتبات العامة

المكتبات المدرسية

مكتبات المساجد أو الجوامع .

مقدمة تاريخية

اهتم العرب قبل الاسلام بالسماع والحفظ في تناقل الأشعار والأخبار أكثر من اهتمامهم بالكتابة والتدوين ، فكانت صدور الرواة منهم تعطي القصائد الطوال وأخبار العرب السابقين وتزخر بالأمثال السائرة والخطب البليغة يتبارون فيها ويتناقلونها بأسواقهم الأدبية وفي مجتمعاتهم كلما التقوا أو تعارفوا .

ومن الثابت أنهم عرفوا التدوين منذ العهود البائدة ودونوا أخبارهم على الأحجار والصخور ، الا أن قلة ما وصلنا من هذه المدونات يفسر لنا اهتمامهم النادر بالتدوين واقتصار الكتابة على فئة قليلة منهم .

وكان ظهور الاسلام فاتحة عهد جديد للتدوين عند العرب فانتشرت الكتابة مع دعوة الاسلام انتشار واسعا ، وقد حث عليها الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في أحاديثه الشريفة ، ومن ذلك قوله : " قيدوا العلم بالكتابة " ، وقوله : " العلم صيد والكتابة قيد " . وفي أعقاب غزوة بدر كان من طرق مفاداة أسرى المشركين أن يعلم الأسير عشرة من المسلمين الكتابة . وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) له كتّاب يكتبون له ما يوحى اليه (صلى الله عليه وسلم) بالخط المقرر النسخي ، ونظرا لاهتمام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكتابة القرآن الكريم ، فقد كان الكتبة يكتبون الآيات القرآنية على العسب واللخاف وأحيانا على الحرير وقطع الأديم والأكتاف على عادة العرب بالكتابة على تلك الأشياء .

وكان يطلق عليها الصحف وعلى تلك (الصحف) كتب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وجاء في الرواية الصحيحة أن القرآن كان مكتوبا بين يد يه (صلى الله عليه وسلم) في اللخاف والعسب وأكتاف الابل ومما رواه البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : " تتبعت القرآن أجمعه من اللخاف والعسب وصد ور الرجال " .

ولم يكن لد ى العرب من الكتب المد ونة في صد ر الاسلام سوى القرآن ، وقد ازد ادت نسخه زياد ة كبيرة في مد ة وجيزة ، واذ ا أخذ نا بروايات بعض المؤرخين فان الكتب العربية في تلك الفترة تشتمل اضافة الى القرآن الكريم ، على ما ألفه زهير بن ثابت في علم الفرائض ، وعبد الله بن عمر في علم الحد يث ، وخالد بن يزيد في بعض العلوم ، وما د ونه عمر بن عبد العزيز من الحد يث الشريف .

ويروى بهذ ا الصد د ، أن عبد الحكم الجمحي فتح ناد يا في مكة جمع فيه د فاتر من كل علم وذ لك في النصف الأول من القرن الأول الهجرى .

وفي خلافة العباسيين اختلف الأمر عما كان عليه في صد ر الاسلام حيث اعتنى العرب في العصر العباسي بفن التد وين ، وضعت مسا ند الحد يث وألفت الكتب في كل علم ، واهتموا حينئذ بانشاء د ور الكتب وهي عبارة عن خزانات عامة للكتب يخصص أحد جوانبها لمطالعة الكتب ونسخها وتكون الد ور

المذكورة موئلا للعلماء والباحثين يتناقشون فيها ويبحثون مختلف المواضيع . وتقوم تلك الدور أحيانا وبصورة عرضية بمهمة تعليمية ، ولا سيما أن بعض روادها يقصدونها من أماكن بعيدة ويقيمون فيها مدة طويلة ، وان القائمين على تلك الخزانات يسهمون بنفقات أولئك الرواد . ويمكن تصنيف خزانات الكتب التي ظهرت في هذه الفترة الى ثلاثة أصناف :

١ - خزانات عامة ، وهي الكتب الملحقة بالمدارس والمساجد والربط والمارستانات ، وكانت تعير الكتب للطلاب ، وأصبح لهذه الخزانات نظم تسير عليه الادارة والاعارة والاستنساخ .

٢ - خزانات خاصة ، وهي الخزانات الشخصية التي كانت في بيوت الخلفاء والولاة والعلماء والأدباء والأثرياء من الناس.

٣ - خزانات بين العامة والخاصة ، وكان استعمالها مقتصرا على طبقة معينة من العلماء والطلاب . ومن أشهر الخزانات في ذلك العهد خزانة دار الحكمة التي أنشأها الرشيد وازدهرت كثيرا في خلافة ابنه المأمون ، وقد حوت هذه الخزانة العديد من الكتب القيمة وكان فيها الى جانب الكتب العربية ، المخطوطات اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها . وفي جميع الخزانات العامة وبعض الخزانات الخاصة أماكن للنساخة والترجمة والتجليد . وكان الكتبة يتأنقون كثيرا في اختيار الورق والحبر الذى يستعملونه ويزينون به فواتح الكتب ، وامتازت الكتب الخطية

بالخطوط الجميلة المنسوبة الى أشهر الخطاطين كابن البواب وابن مقلة ، وياقوت المستعصمي ، وكانت الكتب تعار مقابل رهن حافظ لقيمتها .

أما ادارة خزانة الكتب فكان يتولاها أحد العلماء المشهورين ويطلق عليه " الخازن " يساعده في ذلك المناولون وغيرهم ، وقد خصصت لهم الرواتب والجرايات .

وقد أدى هذا الولع الشديد بالكتب واقتنائها في البلاد العربية الاسلامية الى ظهور صنعة الوراقة وتشمل هذه الصنعة نسخ الكتب وتجليدها وبيعها وبيع الورق وسائر أدوات الكتابة كالأقلام والحبر وغير ذلك ، وكان الوراقون يعنون بتزويق بعض الكتب الخاصة وتصويرها وتذهيبها استجابة لأذواق محبي الكتب من الأمراء والأثرياء .

وقد نتج عن اقبال الناس على الكتب ازدهار صناعة الورق التي تعلمها العرب من الصينيين ، ومن العرب انتقلت الى سائر أنحاء أوربا فكانت من العوامل الممهدة للنهضة العلمية الحديثة .

وكان في بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس وغيرها من حواضر البلاد الاسلامية المئات من دكاكين الوراقين ، ولم يكن الوراقون مجرد باعة للكتب وناسخين لها ، بل كان منهم علماء وأدباء ذو ثقافة عالية كابن النديم وياقوت الحموى وأبي حيان التوحيدى وأبي موسى الحامضي وابن الهيثم .

ويجتمع في دكاكين الوراقين العلماء والفلاسفة والأدباء فيقرأون الكتب ويناقشونها ويتناظرون في مختلف فنون العلم والمعرفة .

واصطلح العرب على الورق أبعادا قياسية وخصصوا كلا منها لنوع من الكتابات ، فكانت الورقة الكاملة تسمى (الطومار) ، ويكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار ، وللتجار وأشباههم من ربع طومار ، وللحساب والمساح من سدس طومار ، ومن أنواع الورق الذى شاع في البلاد العربية والاسلامية هي :
السليماني ، والطلحي ، والنوحي ، والفرعوني ، والجعفرى ، والطاهرى ، والخراساني ، وغيرها ، وعلى الرغم من توافر الورق فقد كتبت بعض الكتب على الجلود والعظام والبردى .

وقد حفلت الحواضر العربية الشهيرة في عهد ازدهارها الفكرى بحقل من الحقول الثقافية وهو ميدان " خزانات الكتب " الذى أسهم اسهاما كبيرا في تطوير الحركة الفكرية فيها ، وزود نهضتها بالعقليات الفذة من رجالها الذين كان لهم أعمق الأثر في التاريخ العربي والاسلامي .

ويمكننا استجلاء الصور الواضحة عن خزائن الكتب الكثيرة التي كانت تحفل بها الحواضر العربية والاسلامية آنذاك في بيوت علمائها وأدبائها يوم كانت مركزا لاعلام الحديث والتفسير واللغة والفقه والتاريخ والأدب ، وقد كثرت مؤلفاتهم ونتاج قراءتهم وبلغت الآلاف المؤلفة ، ولا شك أن كل أمير وعالم وشاعر

وأديب من هؤلاء الأعلام كان يحتفظ في داره بخزانة كتب قيمة فضلا عن المتعلمين وأصحاب الذوق وعشاق الأدب .

ومن الطبيعي أن تقوم الى جانب النهضة الأدبية والتأليفية بشكل عام سوق للوراقة ، تضم الكتب على أشكالها المتنوعة . قد مرت الاشارة الى أن هذه المهنة لم تكن مقصورة على بيع الكتب للراغبين في حيازتها وانما كانت محالها مراكز ثقافية ، فهي ملتقى للمفكرين الذين كثيرا ما كانت تدور بينهم الأحاديث والمناظرات في شؤون الفكر . وتضم هذه المراكز كل الأعمال التي تستبق حياة الكتاب ، وتقوم فيها الخدمة المكتبية غير الموقوتة بزمن في ليل أو نهار على خير ما تؤدى خزائن الكتب رسالتها .

الفصل الأول

الحركة العلمية في العالمين العربي والاسلامي

رأيت في هذا الفصل أنه لا بدّ من الحديث عن الحركة العلمية التي كانت سائدة آنذاك في العالم الاسلامي وذلك حتى يتابع القارئ العربي الخطوات التي أدت الى ظهور المكتبات في العالم الاسلامي ويعرف الظروف الطبيعية والاجتماعية التي أثرت وأدت الى هذا النتاج الفكرى الضخم .

ان تاريخ الفكر في الأمم المختلفة يكاد يسلك سبيلا واحدا ، ويتدرج في درجات معينة ، كل درجة منها تسلم الى التي تليها حتى تهيأت الظروف وتوافرت العوامل ، وليس سيرها من قبيل طيف الخيال أو حلم النائم ، ينتقل حيثما اتفق ، ولا يخضع في حركاته الى قانون أو نظام .

والفكر العربي كان فكر أمة عربية مستقلة عن غيرها ، ثم لم يمهلها التاريخ حتى تتدرج ، أو أنها لم تمهل التاريخ ، فقد أخضعت لأمرها أمة الفرس ، وأمة الروم وأمما بين ذلك كثيرة ، وهذه الأمم المختلفة من فرس وروم ومصريين وأمثالهم كانت على درجات مختلفة من سلم الرقي العقلي ، وكانت قد قطعت مراحل لم يقطعها العرب في جاهليتهم ، وكانت حياتها الاجتماعية مختلفة كل الاختلاف ، فحياة الفرس الاجتماعية غير حياة الروم ، وهما غير حياة المصريين وهكذا ، وبالطبع - فقد كانت حياتهم العقلية مختلفة تبعا لاختلاف حياتهم الاجتماعية .

وانتقل العرب من جزيرتهم الى هذه الأصقاع ، فسكن قوم في فارس وغيرهم في مصر والشام والعراق ، وكانوا أولي الأمر فيها أيام الخلفاء الراشدين والدولة الأموية . ونشر العرب اللغة والدين في كل هذه البلاد وأصبحت الثقافة مصبوغة بالصبغة العربية وأصبحت لغة العلم هي اللغة العربية .

هذه الأسباب وغيرها جعلت الفكر العربي والاسلامي لا يسير السير الطبيعي الذى ساره في الأمم المنعزلة التي لم تمتزج هذا الامتزاج .

لقد كان الفكر العربي فكرا عربيا خالصا من حيث طبيعته ومن حيث لغته ، أما في الاسلام فنحن نسميه فكرا عربيا ولكن على غرار النوع الأول ، حيث أنه في الواقع فكر أمم مختلفة اتخذت اللغة العربية أداة لتفكيرها ، والاسلام أساسه .

كذلك نرى العلم ، كانت نواته القرآن والحديث . فكل مسائل العلم تقريبا تدور حول هذه النواة . منها يستنبط ولأجلها يروى الشعر ، وبسببها تبحث مسائل النحو . فكانت الحركة العلمية كلها دينية الآ القليل منها .

أما في العصر العباسي فقد ظلت هذه النواة ،وان اتخذت البحوث حولها شكلا آخر ، ولكن وجدت بجانب هذه النواة نواة أخرى ، تجمعت حولها العلوم الدنيوية ، وهي نواة الطب والفلسفة والمنطق والالهيات وغيرها .

اذن في هذا العصر نجد نوعين من الدراسة : دراسة دينية حول القرآن والحديث ، ودراسة دنيوية حول الطب والفلسفة ، ولكل نوع مميزات خاصة ومنهج في البحث خاص، وان أثّر كل منهما في الآخر وتأثر به .

وفي هذا العصر (أى العصر العباسي) نجد أنه وضعت في اللغة العربية أسس كل العلوم تقريبا . فقد وضع تفسير القرآن ، وجمع الحديث ووضعت علومه ، ووضع علم النحو وألف فيه سيبويه كتابه الخالد ، ووضعت كتب اللغة ورسم خطها الخليل بن أحمد كما وضع العروض ، ودونت أشعار العرب في المعلقات التي دونها حماد الراوية ، والمفضليات التي دونها المفضل الضبي ، والأصمعيات التي دونها الأصمعي ، ووضع الجاحظ أساس الكتب الأدبية ، وحذا حذوه ابن قتيبة والمبرد وغيرهما ، ودون الفقه على يد الأئمة وتلاميذهم ، ودون التاريخ الواقدى وابن اسحاق وأمثالهما ، ومن ناحية أخرى ترجمت كتب الفلسلة من منطق ورياضة وهيئة وطب وغيرها .

ان هذا التطور نشأ عنه تنظيم العلوم وتدوينها وزيادة فروعها .

وقد نشأت الحركة العلمية هذه في الأمصار المختلفة من بدء الاسلام الى آخر العصر الأموى ، وان أهم المراكز العقلية في ذلك العصر كانت الحجاز والعراق والشام ومصر والأندلس .

ومن مظاهر الحركة العلمية في العالم الاسلامي ، بداية تدوين الحديث ، وأول من خطا في ذلك خطوة عملية عمر بن عبد العزيز ، ففي الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فأني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أهل الآفاق : " انظروا الى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاجمعوه" . ثم بعد ذلك بدأ التأليف في الحديث ، كما بدأ في العلوم الأخرى ، ووجدت هذه النزعة الى تدوين الحديث في أمصار مختلفة وفي عصور متقاربة .

ومن ناحية أخرى فقد نمت اللغة العربية نموا ملحوظا ، وذلك بسبب تغير مدلول الكلمات ، فالاسلام أدخل في اللغة معان جديدة لكلمات كثيرة كمؤمن ومسلم وصلاة وزكاة وركوع وسجود ، فمدلول هذه الكلمات في الجاهلية غيره في الاسلام . وكانت الأحداث سببا في استعمال كلمات في معان خاصة لم تكن تستعمل ، وجاءت العلوم فوضع لها العلماء مصطلحات خاصة ، أخذوا معظمها من كلمات عربية الأصل وحوروا مدلولها . فالعروض ، والبحر الطويل والبسيط والمديد ، والنحو الفاعل والمفعول والمنطق والقضية والموضوع والمحمول ، وأصول الفقه والقياس وغيرها . . . كل هذه المعاني دخلت في اللغة ومعاجمها ولم يكن للعرب الأولين بها علم . وهكذا كان الاسلام والفتح وما تبعهما من حضارة سببا في انتشار اللغة وسعتها .

وكانت ألفاظ القرآن الكريم مادة كبيرة من مواد اللغة اجتهد العلماء في تحديد معانيها ، وكانت حافزا لهم على الرحلة والرواية لتبين مدلولها ، كما كانت ألفاظه سببا في أن يجمعوا حول كل لفظة ما يتصل بها ويبين اشتقاقها وما تفرع من مادتها .

بعد ذلك ظهرت المدارس العديدة في اللغة والنحو ومنها مدرسة البصرة والكوفة في اللغة والنحو ثم بعد ذلك تطور النحو كبقية علوم اللغة العربية .

من هذا نرى أن جمع الحديث كان أساسا لكل العلوم الدينية وتفرع عنه التفسير وتاريخ السيرة وتاريخ الفتوح والطبقات، وكان الحديث في أول الأمر يشمل كل ذلك ، ثم أخذت فروعه تنفصل شيئا فشيئا وتتميز بكتبها وأسمائها .

أما العلوم اللسانية فكان مبعثها أيضا دينيا ، فأهم سبب لوضع النحو المحافظة على القرآن من أن يلحن الناس فيه ، وأهم باعث لجمع اللغة معرفة لغة القرآن وتفسير غريبه .

لقد نشط العلم على امتداد العالم الاسلامي ، وظهر العلماء والأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة وغيرهم من العلماء في سائر العلوم الأخرى سواء التي ظهرت من خلال الدين الاسلامي وعلومه ، أو التي أتت من خارج أسوار العربية ، أو التي ترجمت اليها ، أو في معالجة العلماء للموضوع الواحد . كل هذا نما بالحركة العلمية الى المكانة التي أنجبت لنا أمهات

الكتب في العلوم المختلفة في تلك العصور وحتى عصرنا الذى نعيش ، مما أظهر المؤلفات العديدة في موضوعات عديدة مختلفة الفروع متشعبة الجزئيات .

من ناحية أخرى فقد ظهرت على امتداد العالمين العربي والاسلامي المؤلفات المختلفة في التاريخ والفلك والرياضيات والطب وغيرها ، وملئت بها المكتبات المختلفة ، حيث أن حب العلم والمعرفة لدى أوائل المسلمين قد استوجب بالضرورة تأسيس المكتبات ، حيث تم تأسيسها في القرن الثاني في جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية ، ومن أوائل المسلمين الذين قاموا بتأسيس أولى المكتبات وقام بترتيبها وجمع المصادر المتيسرة لها لترجمتها الى العربية ، كان خالد بن يزيد ، كما كان أول من درس علم الكيمياء في الاسلام ، حيث انصرف الى دراستها على أيدى الرهبان الاغريق ، وقد زار ابن النديم شخصيا هذه المكتبة فوجد فيها العديد من الكتب القيمة في الطب والجراحة والفلك والكيمياء .

وفي الفصول القادمة سوف نتعرف على مختلف أنواع المكتبات التي ظهرت على امتداد العالمين العربي والاسلامي .

الفصل الثاني

المكتبات الأكاديمية

وهذه المكتبات من أشهر المكتبات في البلاد الاسلامية .
وقد وجه الاسلام جل عنايته واهتمامه الى طلب العلم وجعل القرآن الكريم الأشخاص غير المتعلمين في عداد الأموات في حين جعل المتعلمين في مصاف الأحياء ، وقد اعترف الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) بأن حبر العلماء يرتقي الى مصاف دم الشهداء ، وقال أيضا أن الطريق الموصل الى معاهد العلم هو الطريق الموصل الى السموات ، وأن الله عز وجل حينما يريد أن يكرم شخصا يمنحه نور العلم والمعرفة ، معرفة الدين والاحاطة بأصوله وفروعه .

ان هذه الأقوال وما يماثلها من أقوال وتعاليم أخرى قد تركت انطباعا عميقا في أذهان جمهرة المسلمين ، ففي فترة وجيزة من التاريخ أنجب الاسلام مشاهير العلماء أمثال : ابن شهاب الزهرى ومحمد بن جرير الطبرى ، وجمهرة أخرى من جهابذة العلم والمعرفة .

وكان العالم الكبير الزهرى في العهود الأولى من فترة الحكم الأموى قد انصرف الى دراسة العلم ووضع المؤلفات الدينية ، وقد دخلت عليه زوجته ذات مرة الى غرفته وقالت مخاطبة اياه " والله ان هذه الكتب أقبح في نظرى من ضرة تعيش معي في الدار " .

أما المؤرخ الكبير والمفسر الشهير محمد بن جرير الطبرى فقد قال عنه (نيكلسون) : " لقد أمضى قرابة أربعين سنة وهو يكتب أربعين صفحة في اليوم الواحد " وحينما بدأ بتدوين تاريخه الشهير استهله بتدوين تاريخ بدء الخليقة حتى يومه آنذاك كان كتابه من الضخامة بحيث أن تلاميذه رفضوا قراءته واضطر آنذاك الى اختصاره وهو يعرف الآن باسم تاريخ الطبرى - أو تاريخ الرسل والملوك ، وقيل أن هذا العالم الموسوعي كان يكتب بقلم القصب يجمعه في زاوية من زوايا مكتبته الكبيرة .

ان حب العلم والمعرفة لدى أوائل المسلمين قد استوجب بالضرورة تأسيس المكتبات الأكاديمية ، حتى عمّت أنحاء الامبراطورية الاسلامية ، وقاموا بترتيبها وجمع المصادر المتيسرة لها وترجمتها الى العربية ، كما أدخل المسلمون تحسينات كبيرة في حقل النشاط الفكرى وأدخلوا علوما جديدة في حقل العلم والانسانيات ، كما ادخلوا في معارفهم المكتشفات المهمة في حقل الجغرافيا والكيمياء والطب . . .

ومن المكتبات الأكاديمية الشهيرة مكتبة بيت الحكمة ، وقد رجح المؤلفون أن أول من أسس هذه الدار الجامعة لمختلف العلوم والمؤلفات هو الخليفة هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣ هـ) ففي عهده طرأ تحسين كبير في حقل المكتبات وأسس في بغداد هذه المكتبة الشهيرة (دار الحكمة) وهي مكتبة أكاديمية ، كما أسس مكتبا للترجمة وجمع مشاهير الأساتذة أمثال الأصمعي النحوى والشافعي وعيسى بن يونس الصوفي وسفيان الثورى

وابراهيم الموصلي الموسيقي وجبرائيل بن بختيسوع الطبيب ، كما جمع هذا الخليفة العديد من المخطوطات الاغريقية والآداب الشرقية وأمر بترجمتها الى العربية ، وكان رئيس وزرائه يحيى ابن خالد البرمكي قد انتدب السفراء الى الهند لدعوته الأساتذه المرموقين ومشاهير الأطباء والفلاسفة واستقدمهم للعمل في بلاط هارون الرشيد وبذلك أصبحت مدينة بغداد منارا للعلم والمعرفة .

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة لم يكن ليميز في تعيين المترجمين من مختلف أصحاب العقائد والأصناف والأجناس والأديان . أما الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٤٧م) الذى يعرف عهده بالعصر الذهبي فقد قام بتوسيع (بيت الحكمة) التي أسسها والده الرشيد وكان بلاطه مزدحما بمشاهير الأساتذة والشعراء والأطباء والفلاسفة الذين قدموا من جميع أرجاء العالم ومن مختلف المعتقدات والجنسيات . وقد أغدق عليهم دونما تمييز في الجنس والرعاية الواسعة ، كما أغدق الأموال الطائلة على المؤرخين والفلاسفة والنحويين وجامعي الحديث الذين تجمعوا في عاصمة مكله .

لقد قام المأمون باكتناز سجلات أيام الجاهلية عند العرب وأغنى بيت الحكمة فيها بالاضافة الى جمعه شعر العرب القدامى والرسائل والوثائق الارشيفية .

ومن ضمن رواد الترجمة في هذا المعهد (بيت الحكمة) أبو يحيى بن البطريق (٧٠٦ - ٧٩٦م) وهو من علماء الاغريق

قد عاصر في هذه الفترة نهضة هامة جدا في تاريخ الاسلام تميزت بوفرة التراجم والمترجمين الى اللغة العربية .

وعين المأمون حنين بن اسحق (٨٠٩ - ٨٧٧م) ضمن أفراد حاشيته وكان حنين هذا مترجما فذا ، وكان المأمون يزن كتبه المترجمة من الفارسية والسنسكريتية والقبطية واليونانية بالذهب . وثمة مترجم كبير في هذا المعهد (بيت الحكمة) هو يوحنا ، لقد كان فيلسوفا كبيرا قام بترجمة (١٢١) كتابا عن جالينوس - (٢٠٠ - ١٠٠) ق م وكان الفيلسوف الكبير الكندى (٨١٣ - ٨٧٤)عضوا في هذا المعهد الشهير ، وبالاضافة الى أعماله في حقل الترجمة كانت ثمة دوافع قوية لاجراء الدراسات والبحوث والمساهمات الأصيلة لتأسيس دائرة تحت اشراف أساتذة أكفاء . وشجع التأليف عن طريق بذل المنح السخية ، وكان هناك عدد لا حصر له من كتب الرياضيات والهندسة والفلسفة والفلك وعلم الأرصاد الجوية وعلم البصريات والميكانيك والطب .

كل هذه العلوم قد جمعت ونشرت لاطلاع جمهرة القراء عليها وكان الرازى المتوفى عام (٩٢٥)م من علماء الفيزياء حيث كتب ما يزيد على مئتي كتاب لبيت الحكمة .

كما أن ابن أبي الحارث وهو من مشاهير مجلدى الكتب قد عمل مجلدا للكتب في هذه المكتبة .

ان ضخامة المكتبة (بيت الحكمة) ، والعدد الهائل من الكتب التي احتوتها يمكن تصويرها بسهولة في حقيقة كون بغداد ، رغم تعرضها للنهب والسلب مرات عديدة وسرقة الكتب الأدبية ، لكنها رغم كل ذلك فان عدد الكتب التي بقيت سالمة حتى القرن السابع الهجرى كان هائلا جدا .

وفي خلال القرن الحادى عشر ازداد الميل الى تأسيس الجامعات في العالم الاسلامي ولم يكن ثمة مفر من الحاق مكتبة واحدة على الأقل بكل كلية أو جامعة .

وكان نظام الملك رئيس الوزراء الذى اشتهر برعايته للعلم قد جمع حوله نخبة من الأساتذة منهم الفلكيين والشعراء والمؤرخين . وقام بتأسيس المدرسة النظامية في بغداد ومكتبة ملحقة بها ، وقد أصدر أمرا عاما في جميع أرجاء العالم الاسلامي لتأسيس مكتبة ترتبط بكل مؤسسة أكاديمية ، وبنتيجة هذا الأمر الملكي انتشرت المكتبات في جميع أنحاء العالم الاسلامي .

وقد تأسست في عهد الحكم الثاني جامعة قرطبة الشهيرة في الجامع الرئيسي الكبير من ضمن المنشآت التعليمية في العالم وقد أمّها مختلف الطلاب المسيحيين والمسلمين ليس من أسبانيا فقط ولكن من أنحاء أخرى في أوربا وافريقيا وآسيا وكانت مكتبتها أضخم وأغنى مكتبة أكاديمية في العالم .

وفي مصر نجد أكاديمية دار الحكمة ، أسسها الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٩٥ هـ) ، وقد اختار هذا الاسم رمزا للدعوة

الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة فهي بهذا الوصف مكتبة قيمة ، ومدرسة تدرس فيها العلوم المختلفة وقاعة محاضرات . وبعبارة أخرى أكاديمية كبرى .

وقد اهتمت الخلافة الفاطمية في عصر ازدهارها بالآداب والعلوم وجميع فروع المعرفة وترقت الحضارة في عهد ملوكهم الأوائل الذين حاولوا منافسة الخلفاء العباسيين ، وجعل القاهرة مركزا أساسيا وثقافيا وحضاريا ينافس كل من بغداد وقرطبة بل ويفوق عليها .

فحاولوا جذب العلماء من كل مكان وأسسوا مراكز العلم والبحث والدرس واغدقوا على العلماء الهدايا والعطايا وكانت دار الحكمة مركزا لهذا العطاء ، وكان الغرض الأساسي من انشاء دار الحكمة هو تلقين أصول الدعوة الفاطمية الاسماعيلية .

هذا وقد أمر الحاكم بأمره بفرشها ففرشت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم قوام وخدم وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها .

كذلك نقل اليها أعداد كبيرة من الكتب الموجودة في خزائن القصور الفاطمية وحمل اليها العديد من الكتب الموجودة في خزانته الخاصة في سائر العلوم والآداب .

وقد قسمت المكتبة الى عدة أقسام : قسم الفقهاء ، وقسم آخر لقراء القرآن الكريم ، وقسم المنجمين ، وقسم لأصحاب النحو واللغة ، وقسم للأطباء .

وقد أباح الحاكم الدار لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فكان ذلك من المحاسن المأثورة التي لم يسمع بمثلها .

وقد أعطى الحاكم رواتب للقائمين بخدماتها ، وقد حضرها الناس على مختلف مستوياتهم الثقافية . ووفر لهم الحبر والأقلام والورق ورصدت لها ميزانية ضخمة ، كما خصصت بها قاعات للندوات والمناظرات والمحاضرات .

وقد كانت هذه المكتبة منظمة ومصنفة ومرتبة بشكل يسهل خدمة القراء فيها ، وقد عين مشرفا عليها أول الأمر القاضي عبد العزيز من أسرة النعمان التي خدمت الخلفاء الفاطميين طويلا .

وبالطبع ظلت هذه الأكاديمية قائمة حتى سقوط الدولة الفاطمية ، وجاء صلاح الدين الأيوبي فباعها في المزاد العلني .

ومن المكتبات الأكاديمية الأخرى ، مكتبة مراغة التي أسسها المغول في أذربيجان ، فقد أصبحت مراغة أيام المغول عاصمة المشرق ، وقد أنشأ المغول بها معهدا علميا ومرصدا للدراسات الفلكية والطبية والعقلية ، وجمع المغول في هذه المكتبة كتبا كثيرة . بلغت أربعمائة ألف مجلدا ، والغالب أن هذه الكتب هي مما انتهبه المغول من بغداد والشام والجزيرة ، كما يقول **صاحب فوات الوفيات** .

هذا واستمرت هذه المكتبة تؤدى دورها حتى وفـــاة مؤسسها . نصير الدين الطوسي ، وعهد بالاشراف عليها لابن الفوطي واتصل ابن الفوطي بكثير من العلماء والأدباء وأربـــاب الفن وأهل الرياسة على تباين أجيالهم واختلاف بلادهم .

ولعبت هذه المكتبة دورا في نشر المعرفة الدينية والأدبية والاجتماعية عن طريق العلماء الذين أتوا اليها من شتى أنحـــاء الدولة الاسلامية وخارجها .

أما الخليفة المستنصر (١٢٢٦ - ١٢٤٢)م فقـد أســس الجامعة المستنصرية ومكتبة ملحقة بها وذلك عام ١٢٣٣ . وكان هناك العديد من ممتلكات الأراضي قد أوقفت من قبل الخليفـــة لتغطية نفقات هذه الجامعة والمكتبة . وتقدر قيمـــة هـــذه الممتلكات بعشرة ملايين من العملة الذهبية .

لقد كانت هذه الجامعة فريدة من نوعها في جميع أرجـــاء العالم على حد قول ابن الأثير ، وكان عدد الكتب الموجودة في المكتبة الملحقة بالجامعة يناهز الثمانين ألف مجلد .

الفصل الثالث

المكتبات الخاصة

انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الاسلامي بشكل واسع وجيد بحيث نستطيع القول بأن هذا النوع من المكتبات قد فاق في بعض الأحيان غيره من الأنواع الأخرى ، وهذا يدل على مدى انتشار العلم وحب الاطلاع والثقافة لدى العرب الأوائل من المسلمين ، ونجد الوزراء والعظماء والأغنياء والفقراء والملوك قد حرصوا حرصا شديدا على أن يكون لهم مكتبات خاصة بهم فيها مجموعة متنوعة من مختلف الكتب التي تبحث في شتى العلوم ، وهذه المكتبات أنشأها الأفراد من أجل فائدتهم ومصلحتهم الخاصة ، اذ أن معظم أموالها من الأموال الخاصة لدى هؤلاء الأفراد . وسوف نتحدث عن بعض من هذه المكتبات ، فنجد مكتبة سعد بن عبادة الأنصارى (١٥٠ هـ) التي حوت كتبا فيها طائفة من أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعند عبد الله بن مسعود وعند أسماء بنت عميس ٣٨ هـ كتب جمعت فيها بعض أحاديث الرسول ، وقد اشتهرت صحيفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٤٠هـ) التي كان يعلقها في سيفه فيها أسنان الابل وأشياء في الجراحات . ومن بين المكتبات الخاصة أيضا مكتبة الصاحب بن عباد المتوفى (٣٨٥هـ) التي بلغت عشرات المجلدات كما ذكر ياقوت الحموى ، وهناك أيضا مكتبة المستنصر الأموى الذى كان في قرطبة (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وكان فيها مئات من الكتب ، كذلك أسس خالد بن

يزيد بن معاوية مكتبة ، وهي خليط من مكتبات البحث والمكتبات الخاصة ، وبانتشار استعمال الورق ورخص ثمنه وهبوط أثمان الكتب لرخص المواد ، شجع الناس على اقتناء وحب الكتب ، كما أن رخص أجور النسخ والتجليد كان لها أثر أيضا في اقتناء وحب الناس للكتب . وكان للجاحظ والفتح بن خاقان كتب لا حصر لها جذبت الكثير من الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة ، كما كان لدى أبي هريرة رضي الله عنه (٥٩هـ) كتب كثيرة فيها أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) . وكان عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٠هـ) يحفظ كتبه وصحفه في صندوق له حلق ، كما كان لابن عباس (٦٨هـ) كتب كثيرة بلغت حمل بعير ، وكان عند عبد الله بن عمر (٧٣هـ) كتب كان اذا خرج الى السوق نظر فيها .

ونجد عند عروة بن الزبير (٢٢ - ٩٣هـ) كتبا احترقت يوم الحرة فحزن عليها وكان يقول " وددت لو أن عندي كتبي بأهلي ومالي " ، وقد أوصى عبد الله زيد الجرمي (١٠٤ هـ) أحد كبار التابعين مكتبة لأيوب السختياني (٦٨ - ١٣١ هـ) فجيء بها في عدل راحة وقال الحسن البصرى (٢١ - ١١٠هـ) : " ان لنا كتبا فتعاهدها " ، كذلك كان للمبشر بن فاتك (٤٨٠هـ) أحد أعيان أمراء مصر وعلمائها مكتبة قيمة في العلوم الرياضية والحكمية وغيرها .

وكان للخليفة الناصر لدين الله (٦٢٢هـ) مكتبة كبيرة جدا ، وكذلك للخليفة المعتصم بالله (٦٥٦هـ) مكتبة كبيرة

جدا فيها نفائس الكتب في مختلف العلوم ، وأيضا اهتم الكندى الفيلسوف بجمع الكتب الفلسفية وكتب الحكمة والفلسفة اليونانية وعلوم الأوائل فجمع خزانة كتب قيمة اشتهر بها واهتم بها اهتماما كبيرا .

ونذكر أيضا ابن العميد وزير البويهيين ومكتبته الرائعة التي زهت بأن خازنها كان المؤرخ الشهير ابن مسكويه ، فلم يكن ابن العميد عالما بحاثه ممتازا وذا ذكاء وقاد فحسب ، بل أضاف الى هذا حبا شديدا للكتب ، فقد جمع مكتبة حوت كل علم وأنواعا أخرى من المعارف والآداب يحمل على مائة.وتر ، وقد ظل طوال حياته يتعهدها بعنايته ويغذيها بعلمه وأدبه وبالكتب التي يشتريها أو يأمر باستنساخها . وكان شديد الحرص على كتبه حتى كانت تساوى عنده جميع المال بل كان يفضلها على المال ، وهذا ما نستخلصه من القصة التي يوردها لنا ابن مسكويه نفسه في تاريخه عن ابن العميد ومدى حبه لكتبه ولمكتبته ، ذلك أن الخراسانية (جند آل سامان) أغاروا على الرى مدينة ابن العميد ومقره فيصف الحادث ابن مسكويه ويقول : " . . . ورجع الخراسانية الى معسكرهم . . فلما أصبحوا باكروا بالحرب ود خلوا المدينة من ناحية أجران وفيها دار ابن العميد . . فحاربهم فكسرهم . . . ثم كثروا عليه ولم يول منهم . . . فرجع الى دار الامارة واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزانة كتبه وكانت موفورة جامعة الى أن أتى الليل وانصرفوا وكان آليّ الى خزانة كتبه فسلمت من بين خزانته ولم يتعرض لها ،

فلما انصرف الى منزله ليلا لم يجد فيه ما يجلس عليه فأتى ابن حمزة العلوى بفرش له يجلس عليه واشتغل قلبه بدفاتره ، ولم يكن شيء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب يحمل على مائة وقر وزيادة ، فلما رآني سألني عنها فقلت هي بحالها لم تمسها يد ، فسر منه وقال : " أشهد أنك ميمون النقيبة " ، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض وهذه الخزانة هي التي لا عوض عنها ، ورأيته قد اصفر وجهه وقال باكر بها في غد الى الموضوع الفلاني ففعلت وسلمت بجمعها من بين جميع ماله .

هذا وكان اسماعيل بن عباد المعروف باسم الصاحب بن عباد لأنه كان يرافق ابن العميد ويصاحبه ، فقد كان أشد حبا للكتب من أستاذه وأكثر جمعا لها وهو أول من لقب من الوزراء بالصاحب ، وكان محبا للآداب والعلوم اختص بعدد من الأدباء والأطباء واختصوا بخدمته ونجد منهم جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع الذى كان منقطعا اليه وقد سأله الصاحب أن يعمل له كناشا يختص بذكر الأمراض التي تعرض له الرأس الى القدم ولا يخلط بها غيرها فعمل اليه فحسن موقعه عنده ووصله بشيء قيمته ألف دينار .

ويذكر أيضا ابن أبي اصيبعة راوى هذا الخبر في مكان آخر أن جبرائيل سمي كناشة هذا الكافي بلقب الصاحب . كذلك ألف أحمد بن فارس اللغوى كتابا سماه " الصاحبي" صنعه لخزانة الصاحب وكانت مكتبته عامرة بالكتب من شتى صنوف العلم .

وكان لصاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني مكتبة عظيمة حوت من الكتب ما يحمله أربعمائة جمل أو أكثر ، وهذا بالطبع يعطي لنا انطباعا عما كانت تحتويه هذه المكتبة من الكتب التي بلغت نحو مائتين وستة آلاف مجلد . وهنا نص أورده ياقوت الحموى نقلا عن أبي حيان التوحيدى ذلك أن أبا حيان الذى كان منصرفا الى الصاحب ثم انصرف عنه سلق الصاحب بلسانه السليط ولم يترك نقيصة الا وألصقها به مما دفع الصاحب الى حبسه واحراق مكتبته وكان بها كتب كثيرة ومصاحف القرآن وأصول كثيرة في الفقه والكلام وكتب الفراء والكساء وأحرق خزانته .

ويقول ول ديورانت في قصة الحضارة : " وكان عند بعض الأمراء كالصاحب ابن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة " .

كما كان للواقدى المؤرخ المشهور مكتبة ضخمة فخمة حوت الآلاف من الكتب وتوفى الواقدى (٢٠٧هـ) .

وقد أسس جعفر بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بابن حمدان في بلده الموصل مكتبة أسماها ياقوت " دار العلم " ، وقد جعل بها خزانة كتب من جميع العلوم والفنون جاء اليها طلاب العلم والأدب من شتى أرجاء الدولة الاسلامية يتزودوا من علمها وكان يقوم بمساعدتهم وكان يجتمع اليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته مثل الباهر وغيره من مصنفاته

الحسان ، ثم يملي من حفظه من الحكايات المستطابة وشيئا من النواد ر المؤلفة وطرفا من الفقه وما يتعلق به .

وكان للرشيد مكتبة خاصة حوت من الكتب ما يقد ر بعشرات الألوف من جميع الفنون وعلوم الكتب وقد أنفق في شيراز على كتبه آلاف الد نانير حتى بلغت ما يقرب من ٣٠٠ ألف د رهم .

ومن أشهر الأمثلة على المكتبات الخاصة أيضا المكتبة التي كان يملكها علي بن يحيى المنجم في بلد ته قرقر الواقعة قرب قفص من ضواحي بغداد . فقد عاصر ابن المنجم عددا من الخلفاء من المأمون حتى المتوكل وقد دعا مكتبته هذه خزانة الحكمة وقصدها العلماء من مختلف البلاد ، وقد كانت الكتب متاحة للجميع وجميع نفقاتهم على حساب ابن يحيى ، وان أبا معشر المنجم الذى كان ذاهبا الى الحج من خراسان سمع بهذه المكتبة فقصدها فهاله أمرها واستقر فيها حتى شغلته عن الحج نفسه . وقد أنشأ الوزير مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم آخر الخلفاء العباسيين سنة (٦٤٤هـ) دار كتب في داره اشتملت على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب ، حتى أن أحد الشعراء وهو العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد امتدحه في احدى القصائد التي مطلعها :

رأيت الخزانة قد زينت   بكتب لها المنظر الهائل

ونتحدث عن ابن الفوطي الذى كان له مكتبة خاصة تعتبر من المكتبات الثمينة في تلك الأيام وكان منزله ومكتبته ملتقى

طلاب العلم من أهل بغداد وغيرهم ، هذا ولم يكن الاهتمام باقتناء المكتبات الخاصة مقصورا على بغداد وحدها وانما نجد هذا الاهتمام يضم أيضا مدينة الكوفة حيث المكتبات العديدة ومنها مكتبة أبي بكر بن الأنبارى المتوفى سنة (٣٢٨ - ٩٣٩م) ، من أهل الكوفة النابهين ، وكان كثير الحفظ واسع الاطلاع وقد أكثرت كتب التراجم والرجال من مدحه والثناء على علمه الجم وأدبه الغزير ، واتفقت المراجع على أنه أكثر الكوفيين حفظا للغة والشواهد ، وقال عنه أبو علي القالي " كان يحفظ فيها ذكر ثلثمائة ألف بيت شاهد في القرآن وله أوضاع كثيرة ، وكان ثقة ديّنا صدوقا وكان أحفظ من تقدم من الكوفيين ، وقال محمد بن جعفر التميمي " ما رأيت أحفظ من ابن الأنبارى ، ولا أغزر بحرا ، حدثوني عنه أنه قال : احفظ ثلاثة عشر صندوقا " .

ومما روى عنه أنه كان يملي في ناحية من المسجد (مسجد الكوفة) وأبوه من ناحية أخرى ، ومرض فعاده أصحابه ، فرأوا من انزعاج والده أمرا عظيما ، فطيبوا نفسه ، فقال : كيف لا أنزعج وهو يحفظ جميع ما ترون وأشار الى خزانة مملوءة كتبا .

وأيضا خزانة داود بن نصير الطائي الكوفي الفقيه الزاهد المحدّث ، من أتباع التابعين بالكوفة ، حدّث عنه عبد الله بن ادريس وجماعة . وكان قد قدم بغداد أيام المهدى العباسي ثم قفل راجعا الى الكوفة وقد تبدلت حياته الى العزلة والانفراد مع الزهد والتقشف والعبادة حتى قال عنه محارب بن شار " المحدّث الكوفي " : " لو كان داود في الأمم الماضية لقص

الله علينا خبره " ، حدث عنه عبد الملك بن عمير واسماعيل بن أبي خالد والأعمش ، وروى أن سبب انقطاعه أنه مـرّ يوما بامرأة عند المقابر تقول : " يا يحيي ليت شعرى بأى خديك بدا البلا" وذكر ابن سعد أن داود سمع الحديث والفقه وعرف النحو وعلم أيام الناس وأمورهم ثم تعبّد فلم يكن يتكلم في ذلك بشيء .

ووصفه ابن حيان بقوله : " الطائي العابد أبو سليمان ، ممن تخلى وتزهد وتجرد وتعبد ، وقنع بلزوم الفقر الجهيد ، والحمل على النفس بالجهد الشديد " .

أما ما جاء عن خزانة كتبه فانه عمد الى تفريقها في مياه نهر الفرات ، وقيل أنه دفنها في الأرض ، وفي ذلك ضياع لثروة فكرية لا تقدر ، والحق أن مثل هذه العادات غير محمودة ، وهي من الآفات التي أضاعت علينا طائفة كبيرة من التصانيف . ولم تكن الكوفة الحاضرة الوحيدة التي تعرضت لمثل هذه العادات ، فقد كانت منتشرة في الكثير من الحواضر ، وبرر ذلك قلة التدبير والجهل والتعصب وهذا جانب مما تعرضت له المكتبة العربية وواجهته من أحداث الحياة ، فضاع منها ما ضاع ، وبقي فيها ما بقي مجهولا .

ومن المكتبات الخاصة في الكوفة أيضا مكتبة أو خزانة محمد ابن عبد الله الفزارى وهو أحد المحدثين الكوفيين ممن سمع سماعا كثيرا ، وفي طليعة من أخذ عنهم الحديث ، عطاء بن أبي رباح وعطية العوفي وأبي اسحاق السبيعي وغيره وعنه ابنه

عبد الرحمن وشعبة وشريك ، وهو ممن دفن خزانة كتبه فكان بعد ذلك يحدث من حفظه ولذا ضعّفه بعض المحدّثين . ومن خزائن الكتب الخاصة أيضا خزانة علي بن مسهر القرشي ، كان ثقة جمع الفقه والحديث ، وولى قضاء الموصل ، ثم قضاء ارمينية ، ولما قدم ارمينية اشتكى عينه فقال قاض كان قبله للكحال : " أكحله بما يذهب عينيه ثم أعطيك مالا " فكحله فذهبت عينه ، فرجع الى الكوفة أعمى ، وعرف عصره من المحدّثين الثقاة روى له البخارى ومسلم وابن ماجة وكان قد دفن خزانة كتبه وهو من متقني أهل الكوفة .

وهناك خزانة سفيان الثورى المتوفي سنة (١٦١هـ - ٧٧٧م) من قبيلة عربية مضرية الأصل ، شهيرة بالكوفة وكان من أئمة العلم في الحديث والفقه ، سمع الحديث على أبي اسحاق السبيعي الكوفي ، والأعمش ومن في طبقتيهما ، وكان من حفظة الحديث وغيره من العلوم وقد كتب له (المهدى العباسي) عهدا على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم دفعه اليه ، فأخذ العهد وخرج فرمى به في نهر دجلة واختفى بالبصرة وظل بها مستترا من المهدى حتى موته ، وقد أوصى الى عمار بن سيف في كتبه فمحاها وأحرقها ، وللثورى جملة كتب ألفها في الحديث والتفسير والفقه وغيرها من العلوم ومن تصانيفه " الجامع الكبير في الحديث والفرائض " ، " وتفسير القرآن" وقد طبع الأخير في الهند بعناية السيد امتياز علي عرشي ، وذكر الخطيب البغدادى أن أصحاب الثورى كانوا يأتون في بيت يحيى

ابن سعيد القطان (هو مكان اختفائه بالبصرة) فاذا سمع بصاحب حديث بعث اليه وكان يقول ليحيى : تريد مثل أبي وائل عن عبد الله ، أين تجد كل وقت هذا ؟ اذهب الى الكوفة فجئني بكتبي أحدثك ، فأجابه يحيى : أنا أختلف اليك وأخاف على دمي ، فكيف أذهب فاني بكتبك ! وروى الخطيب أيضا باسناده عن أبي الأسود الحارثي قال : خاف سفيان شيئا فطرح كتبه " أى دفنها " فلما أمن أرسل اليّ والى يزيد ابن توبة المرهبي ، فجعلنا نخرجها فأقول : يا عبد الله ،وفي الركاز الخمس ، وهو يضحك فأخرجنا تسع قمطرات كل واحدة الى هاهنا ، وأشار الى أسفل من قدميه قال : فقلت له : أعرض لي كتابا فحدثني به ، وقد عقب ابن الجوزى على دفن سفيان لمكتبته قائلا : ان من دفن كتبه لسبب مشروع كأن يكون فيها أشياء مدخولة لم يستطع تمييزها أو لم يشأ نشرها فلا بأس به ومثل ذلك فعل سفيان الثورى وبعض الأكابر . . هذا ولم يعقب سفيان أحدا فأوصى بما عنده لأخته وولدها ولم يورث أخاه المبارك بن سعيد الثورى المتوفى سنة ١٨٠ هـ . وهناك أيضا خزانة عطاء بن مسلم الخفاف ، فقد تحدث عنه محمد بن المبارك الصورى ، وموسى بن أيوب النصيبي ، وكان من أهل الكوفة ، من أقسم بالصلاح والتقى وكان قد نزل حلب في فترة من حياته وورد عنه أنه دفن ـ خزانة كتبه قبل وفاته ، ومن المكتبات الخاصة أيضا خزانة أبي كريب الهمداني ، وكان من محدثي الكوفة الأجلاء ، ونزل بموضع يسمى المطمورة ، وهو

من مشايخ النسائي وممن روى الحروف عن أبي بكر وروى عنه أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف حديث ، وأوصى قبل وفاته أن تدفن كتبه معه فدفنت . ومن المكتبات الخاصة أيضا نتحدث عن خزانة ابن عقدة المتوفى (٣٣٢ هـ - ٩٤٣م) . وهو الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني السبيعي ، والمعروف بابن عقدة ، وعقدة لقب به لعلمه بالتصريف والنحو وكان يورق بالكوفة ويعلم القرآن والأدب ، وقال النجاشي عن ابن عقدة " هذا رجل جليل في أصحاب الحديث مشهور بالحفظ ، والحكايات تختلف عنه في الحفظ ، وكان كوفيا جاروديا على ذلك حتى مات " ، وذكره الدارقطني فقال : " اجمع أهل الكوفة أنه لم يرو من زمن ابن مسعود أحفظ من أبي العباس بن عقدة ، وحدّث أحمد بن الحسن ابن هرثمة قال : كنت بحضرة ابن عقدة ، أكتب عنه ، وفي المجلس هاشمي فجرى حديث الحفاظ ، فقال أبو العباس : أنا أجيب ألف حديث من أهل بيت هذا سوى غيرهم ، وضرب بيده على الهاشمي ، ولابن عقدة كتب كثيرة منها : التاريخ والسنن والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وفضل الكوفة وتفسير القرآن وصلح الحسن ومعاوية والثورى والطائر والنبي والصخرة والراهب وأخبار أبي حنيفة ومسنده ، وأشار فريق من الباحثين الى خزانة كتب ابن عقدة ، ومما قالوا : أراد أبو العباس أن ينتقل من الموضع الذى كان فيه الى موضع آخر فاستأجر من يحمل كتبه وشارط الحمالين أن يدفع لكل واحد منهم دانقا ، ولكل كرّة ، فوزن لهم أجورهم مائة درهم ، وكانت كتبه ستمائة حمل .

وننتقل الى خزانة قطب الدين الاقساسي الحسيني ، وهو أحد شعراء وأدباء الكوفة وساداتها الاشراف ، وكان ظريفا طيب الفكاهة ، حاضر الجواب ، تولى نقابة النقباء ببغداد بعد عزل قوام الدين أبي علي الحسن بن معد المتوفى ٦٣٦هـ ، وروى أنه بدرت منه كلمة على وجه التصحيف وهي " أردنا خليفة جديد " فاستاء لها الخليفة الناصر ، وأمر بتقييده وحمله الى الكوفة وسجن فيها فلم يزل محبوسا الى أن استخلف الظاهر سنة ٦٢٣ هـ فأمر باطلاقه فلما استخلف المستنصر بالله سنة ٦٢٤ هـ رفق عليه فقربه وأدناه ورتبه نقيبا وجعله من ندمائه . ومن شعره قوله يمدح الأمير سليمان بن نظام الملك متولي المدرسة النظامية من قصيدة قالها سنة ٦٣٧ هـ :

يا بن نظام الملك يا خير من   تاب ومن لاقى به الزهد
يا بن وزير الدولتين الذى   يروح للمجد كما يغدو

وكان له بالكوفة خزانة كتب جليلة القدر ولهذا قصدها الكثير من علماء ذلك الزمان وورد أن الفصيح علي بن أبي صالح العامرى الكوفي المعروف بابن الصائغ المتوفى سنة ٦٥٠ هـ الذى هو أيضا من العلماء والأدباء ، كان خازنا لكتب هذه الخزانة المهمة ، وممن قصدها من أهل العلم والأدب محمد بن سعد الله بن نصر بن سعيد بن الدجاجي ، والمؤرخ عبد الرزاق بن أحمد المعروف بالفوطي ، وركن الدين عبد الصمد بن محمد الديلمي القزويني المولود (٦٥٦ هـ أو ٦٥٧هـ) فسمع بها من ابن الصباغ ، وحمل اليها محمد بن أحمد بن بختيار المعروف بابن المندائي الواسطي المتوفى ٦٠٥ هـ وهو طفل وسع بها .

وفي الكوفة أيضا نجد خزانة ابن الكوفي ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد الزبير الأسدى ، كان عالما مشهورا بجودة الخط ، وأحد أفاضل أصحاب " ثعلب النحوى " ممن اتصف بالصدق والثقة في النقل كثير الاهتمام بجمع الكتب مولعا باقتنائها وكان طالب العلم اذ قال : نقلت من خط ابن الكوفي ، فقد بالغ في الاحتياط ، وكان لابن الكوفي مؤلفات عدة منها : كتاب الهمز ، وكتاب معاني الشعر واختلاف العلماء فيه ، وكتاب الفرائد والقلائد في اللغة ، وقد وصفه ابن النديم بأنه " عالم صحيح ، راوية ، جمّاعة للكتب ، صادق في الحكاية ، منقّر بحاث ... " وقد رتب ابن الكوفي خزانته على العلوم ترتيبا خاصا بارعا مع تعيين أمكنتها ، وأنه سبقنا الى استعمال البطاقات والجزازات وهي الرقاع والوريقات التي تعلق بها الفوائد ، التي نسميها اليوم فيش في التأليف والجمع ، وقد بيعت رقاعة - بعد وفاته - كل بطاقة بدرهم .

ومن خزانات كتب اعلام الكوفة أيضا خزانة ثعلب وخزانة الكندى ، فقد حظيت الكوفة بجمهرة كبيرة من الاعلام المشاهير في مختلف العلوم وشتى الفنون والآداب ، وواكبت بعض هؤلاء الاعلام ظروف خاصة ، من أبرزها رغبتهم في الاستزادة من المعارف والعلوم والاطلاع على الكتب النادرة أو الاتصال بأساتذة أكفاء ليرضوا بذلك طموحهم ومن أجل ذلك كانوا يتنقلون في الأمصار والحواضر الاسلامية .

أما عن ثعلب ، فهو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد . هو النحوى المشهور بـ (ثعلب) مولى بني شيبان . هو ثالث ثلاثة بعد الكسائي والفراء ، قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة النحوية ، وله عدة مؤلفات ، ومن كتبه :
اختلاف النحويين ومعاني القرآن وما تلحن فيه العامة وشرح ديوان الأعشى ، وما ينصرف وما لا ينصرف والمجالس وقواعد الشعر وشرح ديوان زهير وكتاب الفصيح . أما عن خزانة كتبه فقد بيعت بعد وفاته .

أما عن خزانة الكندى فيلسوف العرب الأول ، فقد تلقى العلم في مسقط رأسه الكوفة وفي بغداد ونال شهرة واسعة بما ألّفه من الكتب في مختلف فروع المعرفة والفلسفة ، وذاع صيته في عصر المأمون والمعتصم ، الخليفتين العباسيين ، وقد خلف من نتاجه الفكرى (٢٦٥) مقالة وبحثا في علوم الحساب والهندسة والنجوم والفلك والأنواء والجغرافية والطبيعة والسياسة والموسيقى والطب والفلسفة ، وجنح الكندى الى مذهب الاعتزال ، فلما تحول الفكر وظهر العداء للمعتزلين صودرت خزانة كتبه ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت اغتيالا ، غير أن العاصفة مرّت به فلم تحصده مع من حصدت من أهل الاعتزال . وتعد خزانة الكندى من الخزائن النفيسة ، اهتم بجمعها واستنساخها والحصول عليها اهتماما بالغا ، فكانت مطمح نظر معاصريه لتنوعها وتفردها بالكتب النادرة ، وكانت احدى أسباب الوشاية به ، وكان أكثر الناس حسدا له محمد وأحمد أبناء موسى بن

شاكر فانهما دبرا له مكيدة ، فباعداه عن المتوكل وأخذا كتبه فأفرداها في خزانة خاصة سميت " الكندية " وقد ساق مفصل هذا الخبر أبي جعفر محمد بن يوسف وأشار الى أن الكندى استرد خزانته بعد أن ظهر زيف ما ادعاه عنه أبناء موسى بن شاكر .

وفي مصر وسوريا نجد اهتماما بالمكتبات الخاصة وان كان أقل درجة من سابقيه ، فقد كان للوزير جمال الدين القفطي المتوفى سنة (٦٤٦هـ) مكتبة قدرت محتوياتها من الكتب ما يزيد عن خمسين ألف دينار ، أوصى بكتبه هذه للناصر صاحب حلب.

كذلك كان للصاحب أمين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل الأيوبي في دمشق المتوفى سنة (٦٣٨هـ) همة عالية في جمع الكتب وتحصيلها واقتنى كتبا كثيرة فاخرة في سائر العلوم .

وفي مصر وجد العديد من المكتبات الخاصة التي جمعها بعض العلماء والوزراء والأطباء والأفراد ومنهم يعقوب بن كلس الذى كان وزيرا للعزيز بالله الفاطمي فقد كان له خزانة كتب وكان محبا للعلوم وجمع حوله العلماء والأدباء يتبادلون المناظرات والمناقشات والأحاديث ويشكلون المصاحف وينقطونها .

وكان للأمير مبشر بن فاتك خزانة كتب وكان همه الأول المطالعة والكتابة حتى يقال أن الكتب والمطالعة شغلته تماما عن زوجته وذكر موسى بن عقبة أنه كان لقريب مولى ابن عباس كتب تزن حمل جمل تركها عند وفاته لابن عقبة .

ويقول ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان : " أنه يذكر عن أبي عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان المقرئ* واللغوي قائلا : " كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا الى قريب من السقف " وهذا يوضح لنا أن أبا عمر كان مولعا بالكتب حتى أنه عبأ خزانته حتى السقف .

ونجد في الأندلس أن الناس ولعوا باقتناء الكتب والمكتبات والعناية بها من تجليد وزخرفة وازدهرت المكتبات الخاصة في الأندلس بشكل يدل على التقدم والرقي نتيجة ازدهار الحضارة الاسلامية على تلك البقعة الاسلامية حتى أصبحت تضاهي أحسن مدن أروبا في ذلك الوقت ، ومن منطلق هذا الرقي الحضاري انتشرت المكتبات في جميع أنحاء البلاد وكثر عشاقها وكثر التأليف والمؤلفون لا سيما أنه وجد حكاما شجعوا العلم .

هذا وقد كان القاضي أبو المطوف ، عبد الرحمن بن يحيى بن عيسى شغوفا بالعلم محبا للكتب حتى أنه جمع خزانة من الكتب في أنواع العلوم لم يجمعها أحد من أهل عصره بالأندلس .

كذلك جمع ابن حزم المؤلف المشهور مكتبة كبرى ولكنها احترقت . وقد انتشر في الأندلس اقتناء الكتب وانشاء المكتبات الخاصة في البيوت حتى أصبح الناس يتباهون أن لديهم مكتبة يتجملون بها بين أعيا. ،ببلد .

ويبدو أن تأثير الثقافة العربية الاسلامية غزا أهل اسبانيا وذلك في القرن العاشر والحادى عشر الميلاد بين حتى أن أغلب الناس سرت اليهم العادات الاسلامية والثقافة العربية الاسلامية ، فتعلموا اللغة العربية وكتبوا بها واقتنوا مكتبات عربية كانت تكلفهم الأموال الطائلة ، وذلك نتيجة اقبالهم على كتب العرب من أجل التزود بالعلم والمعرفة وبطبيعة الحال منهم الكثير من دخل الدين الاسلامي حبا وطواعية .

مما ذكر نستخلص أن المكتبات الخاصة قد انتشرت على امتداد العالم الاسلامي من المشرق الى المغرب ، وتنافس العلماء والأفراد والوزراء العظماء والشعراء والأدباء على اقتناء المكتبات الخاصة ، وذلك من أجل العلم والوصول الى المعرفة حتى أنهم انفقوا الكثير من أموالهم الخاصة في سبيل اقتناء أكبر عدد من الكتب ، وخاصة النادرة منها ، التي بلغت بهم أن يتباهوا باقتناء تلك المكتبات ، ونذكر هنا أن بعض الأفراد كان لديهم مكتبات خاصة على الرغم أنهم لم يكونوا متعلمين ولكن فقط من أجل أن ينافسوا غيرهم من المتعلمين والعلماء ، وهذا شيء عظيم جدا يدلنا على تأثير وتأثر الناس بالثقافة الاسلامية .

وليس هذا غريبا في المجتمع الاسلامي الذى تمثل الاسلام وعرف قدر العلم ومكانته ، فهيأ له وسائله وأخذ بأيدى أهله الى أعلى الدرجات ، وليس عجبا أن يسارع المسلمون الى المكتبات وحوانيت الوراقين ، ومؤسسات التعليم مادام الاسلام قد فتح أبواب العلم أمام المسلمين جميعا ، وحث على التعليم ،

وجعل العلم أساسا في رفع الدرجات ، وان كان هذا ممـــــا يدهش له الباحثون من غير المسلمين ، لأنهم لم يقفوا في التاريخ على أمة أمدت الحضارة الانسانية ، بالتراث الفكرى كأمة الاسلام .

ولا يفوتنا مدى اسهام هذه المكتبات في تطور الحضـــــارة العربية واسهامها في نقل التراث العربي الاسلامي الى أوربـــا عن طريق الطلبة الذين جاءوا الى العالم الاسلامي للتزود بهذا العلم الغزير عن طريق حضورهم الندوات والمناقشات والمناظرات التي كانت تقام .

الفصل الرابع

المكتبات الخلافية

المكتبات الخلافية هي نوع من المكتبات انتشر على امتداد العالم الاسلامي من المشرق الى المغرب .

وهذه المكتبات كان ينشؤها الخلفاء والأمراء والحكام من أجل أنفسهم ، وقد جعلوها حلقات للمناظرة والسمر والمحاضرات والعلوم المختلفة ، كما كانت من أجل نشر مذهب يعتنقه الحاكم أو الأمير .

وقد ازدهرت هذه المكتبات لدى الحكام المحبين للآداب والعلوم . وبعض هذه المكتبات كانت أبوابها مفتوحة للناس ، وبعضها الآخر كان مقصورا على استعمال الخليفة أو الأمير وحاشيته .

ومن أمثلة المكتبات الخلافية ، تلك المكتبة التي أسسها السامانيون في بلاد خراسان واهتم ملوكها بالعلوم والآداب وشجعوا عليها ، واهتموا بالمذهب الاسماعيلي الذى هو مذهبهم وسعوا لنشره بالطرق السلمية وعن طريق الدعاية والاعلان ، وقد أسسوا مكتبة خلافية كبرى في مقر اقامتهم بخارى حوت كتبا كثيرة من كل علم وفن وكانت المكتبة كبيرة جدا . يصفها ابن سينا بأنها دار ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضّدة بعضها فوق بعض ، في بيت كتب العربية والشعر وفي

آخر الفقه وهناك بيت آخر فيه كتب علم مفرد ، كما كانت هـذه المكتبة تحوى كتبا نادرة .

يقول ابن سينا : " ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس قط ولا رأيته قبل . . . .

وكانت هذه المكتبة محرمة على عامة الناس لا يدخلها أى انسان الّا باذن السلطان نفسه .

كذلك أسس عضد الدولة البويهي في شيراز مقر حكمه دار كتب فخمة وجمع فيها من الكتب ما ليس له نظير .

ويذكر المقدسي أن عضد الدولة بنى دارا في شيراز لم يـر في شرق ولا غرب مثلها وما دخلها عامي الّا افتتن بها ولا عاقل الّا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها ، أخرق فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاطها بالبساتين والأشجار وحفر فيها الفياض وجمع فيها المرافق والعدد . وسمعت رئيس الفراشين يقول : " فيها ثلاثمائة وستون حجرة ودارا كان مجلسه كل يوم واحدة الى الحول وهي سفل وعلو وخزانة الكتب حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ولم يبق كتاب صنف الى وقته من أنواع العلوم كلها الّا حصله منها وهي أزج طويل في صفه كبيرة فيه خزائن من كل وجهة ، وقد ألصق الى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة الى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر

منضّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ، لا يد خلها الآ وجيه ، وطفت في هذه الدار كلها سفلها وعلوها وقد فرشت فيها الآلات فرأيت في كل مجلس ما يليق به من الفرش والستور " .

أما خزانة الكتب في العصر الفاطمي ، فكانت مفخرة العصر الفاطمي وأكبر دليل على تقدم الآداب والعلوم فيه ، وكان فيها أندر المؤلفات وأشهرها . وكان فيها من بعض المؤلفات نسخا كثيرة ، وكان الوزراء والخلفاء يحرصون على جمعها حتى ينفردوا بالفخر ويحرمون منه المكاتب الأخرى في العالم الاسلامي .

وكانت بعض الكتب بخطوط المؤلفين أنفسهم ، كالخليل بن أحمد الطبرى . وكان تجار الكتب يعرضون على موظفي مكتبة القصر أندر الكتب التي يعثرون عليها وكانت معروضاتهم تفحص بعناية كبيرة .

ويذكر المقريزى أن رجلا حمل الى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز أمناء المكتبة فأخرجوا من الخزائن ما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه ولعله فعل ذلك لكي لا يركب الرجل متن الشطط في تقدير ثمن الكتب .

وحدث أن ذكر كتاب الجمهرة لابن دريد فوجد العزيز أن في المكتبة مائة نسخة منه .

وكثيرا ما كان الخليفة يزور خزانة الكتب ، فيجيء راكبا ، ثم يترجل ويتخذ مجلسه فوق دكة منصوبة ، ويمثل بين يديه أمين الخزانة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص .

وكان في خزانة الكتب مخطوطات محلاة بالذهب والفضة وربما كان بعضها مزينا بالصور والرسومات الدقيقة ، متأثرا بالصناعة الفارسية في هذا الميدان .

وجمع الفاطميون في خزانتهم نماذج عديدة من كتابة مشاهير الخطاطين كابن مقلة وابن البواب وغيرهما .

ويقال أن خزانة كتب الفاطمية كان فيها أربعون قسما : منها قسم فيه ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة .

وكان كل قسم يحتوى على رفوف عديدة مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب يقفل بمفصلات وقفل .

وبلغت جملة ما في الخزانة من الكتب نحو مليون وستمائة ألف وقيل مليونين ، في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والروحانيات والكيمياء والطب وغيرها .

وكان أكثر المخطوطات المذكورة في جلود جميلة النقوش بديعة الصناعة . ونسج المماليك على منوالها في صناعة

التجليد في عصرهم ، وأخذ الغربيون عنهم في العصور الوسطى كثيرا من أساليبهم في هذا الميدان .

وخزانة الكتب الفاطمية ذاع صيتها في العالم الاسلامي تشهد بذلك حكاية رواها أسامه بن منقذ عن أبيه وفيها أن قاضيا سافر الى مصر في أيام الحاكم بأمر الله ، فأحسن اليه وأكرمه ووصّله بصلات سنية ، فطلب القاضي الى الخليفة الفاطمي أن يعطيه منها ، وسأله أن يجعل صلته كتبا يختارها من خزانة الكتب الفاطمية ، فأجابه الخليفة الى ما أراد .

وحمل القاضي الكتب معه في مركب الى ساحل الشام ، فتغير عليه الهواء فرمى بالمركب الى مدينة اللاذقية وفيها الروم ، فخاف على نفسه وعلى الكتب التي معه ، فكتب الى جد أسامه ابن منقذ كتابا يقول فيه : قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعي كتب الاسلام ، وقد وقعت لك رخيصا فهل أجدك حريصا ؟ فبعث اليه من قام بحراسته وحمل ما معه .

وليس غريبا أن يجتمع للفاطميين مثل هذه المكتبة العظيمة . فقد كانوا يعتمدون على الدعاة والمخطوطات في نشر مذهبهم واذا صح ما ذكره ابن الأثير ، فان عميدهم عبيد الله المهدى كانت عنده كتب ملاحم لآبائه وكان يحملها في متاعه عند مسيره الى سجلماسه .

لقد كانت سياسة الفاطميين رغبتهم الأكيدة في منافسة الدولة العباسية وعملهم على تشجيع العلم والعلماء ، وسياستهم

في تقريب الأدباء والشعراء واتخاذهم اياهم صحفا حية تلهج بذكرهم .

ومهما يكن من شيء فان حكام القيصريات الاسلامية الثلاث ـ وهي : الدولة العباسية في الشرق والدولة الفاطمية في مصر والدولة الأموية في الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجرى ـ كانوا مغرمين بجمع الكتب غراما كبيرا وكانوا يتسابقون ، حتى أن الخليفة الحكم الثاني من خلفاء الدولة الأموية في الأندلس كان له رسل في أنحاء العالم الاسلامي يجمعون له الكتب ولا سيما ما كان منها بخطوط المؤلفين .

وأما آخر الخلفاء العباسيين المعتصم بالله فقد أنشأ خزانتين للكتب نقل اليهما من نفائس الكتب وجعل المتولي على الأولى شخصا اسمه صدر الدين بن التيار ، وجعل المتولي على الثانية شخصا اسمه عبد المؤمن بن فاخر الأرموری .

وكان الخليفة يجلس بعض الأحيان في الخزانتين بالتناوب ويبدو أن الخزانتين أنشئتا في دار الخليفة الخاصة .

هذا وقد اهتم الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) بالعلوم والآداب اهتماما كبيرا وقصده العلماء من كل مكان وأصبح قصده قبلة الأدباء ومثابتهم أمثال القالي وغيره . وقد أسس مكتبة كبرى في قصره وخزن بها الكتب بجميع اللغات .

هذا وان أشهر أمراء سورية الذين اهتموا بالعلم والأدب وشجعوا عليها هو سيف الدولة الحمداني في القرن الرابع

الهجرى ، وكان قصره في مدينة حلب والتف حوله عدد من أعظم الأدباء والشعراء والعلماء أمثال المتنبي وأبي فراس وابن خالويه والفيلسوف الفارابي .

واهتم سيف الدولة بالنقل من السرياني الى العربي ، وقد أوجد سيف الدولة مكتبة كبرى وفد اليها في عهده شاعران مشهوران هما الخالديان أبو بكر محمد بن هشام وأبو عثمان سعيد بن هشام .

وهناك العديد من المكتبات الخلافية الأخرى نذكر منها المكتبة التي أسسها الحكم الثاني وصرف عليها بسخاء وكان وكلاؤه يفتشون عن الكتب في محلات بيعها وفي المكتبات الأخرى في كل من بغداد ودمشق والقاهرة والاسكندرية وغيرها من الأماكن ، وقد حصل أيضا على كتب كتبت خصيصا لمكتبته ، كما استنسخت الأعداد الكبيرة من الكتب لهذه المكتبة أيضا ومن ضمنها الكتب التي تبحث في علم المواقيت وكتاب أوقات الصناعات الذى ألفه أبو الحسن عريب بن سعيد المتوفى سنة (٩٨٠ - ٩٨١) م كتبه في قرطبة في سنة ٩٦١م ثم نقح وترجم الى اللاتينية من قبل (دوزى) في عام ١٨٧٣م .

وقد تحدث الأساتذة العرب المعاصرون كثيرا عن مكتبة الحكم الثاني وعن مجموعاتها الضخمة وكتبها الثمينة وطبقا لأقوال هؤلاء الأساتذة فان مكتبة الحكم الثاني تضم أعظم مجموعة حوتها مكتبة ملكية في العصر الوسيط في العالم . وكان الحكم شغوفا

بتنظيم مكتبته وتصنيفها وتزيينها بالزخارف الفنية . . . الـــخ وقد عين لها عددا من حذاق المجلدين وبضعة غرف خصصت لأعمال الاستنساخ والزخرفة وتجليد الكتب التي كتبت بحروف من الذهب وزينت بالتصاوير الجميلة ، بالاضافة الى ذلك فان الحكم كان أستاذا ومؤرخا وضع الشيء الكثير من الملاحظات على الصفحات البيضاء الأخيرة من الكتب وأضاف الحواشي الثمينة على كل كتاب ودوّن أسماء مؤلفي الكتب وألقابهم وأسماء عوائلهم وقبائلهم وتواريخ ولادتهم ووفاتهم ولم يكن الآخرون كالحكم يملكون هذا الفيض من المعلومات في التاريخ والأدب وعلم الأنساب ، وبلغت معلوماته من الدقة بحيث أن الأساتذة المتأخرين قد اعترفوا بصحة هذه الحواشي على أنها تتسم بالدقة والصدق .

لقد جمع الحكم الثاني ما لا يقل عن أربعمائة ألف كتاب في زمن لم يكن فيه الطبع والنشر معروفا كما هو الحال في أيامنا هذه . .

ولم تحرم المرأة خلال حكم الحكم الثاني من نصيبها في العلم والمعرفة فقد مارست المرأة في عهده شرف التعليم وكرست نفسها للدراسة والعلم ، وكان العديد من النسوة قد حصلن على شهرة مرموقة لما كتبن من مقالات أدبية ولما نظمنه من الشعر وجمال الخط ، وكان بين جواريه من حصلن على نصيب وافر من الثقافة وقواعد اللغة وعلم الحساب والعلوم الأخرى .

وكانت الجارية فاطمة ابنة العامل الرقيق في البلاط ويدعى زكريا ، مولعة بالشعر ، فلم يكن في قصر الحكم من يستطيع أن يجاريها في أسلوب الكلام البليغ ، وقد قام الحكم الثاني باستنساخ العديد من الكتب للخلفاء .

ونختتم هذا الفصل بالقاء الضوء على المساهمة المجيدة العظيمة التي مارسها المسلمون القدامى في هذا الحقل من المعرفة (المكتبات) ونشير الى بعض المكتبات الخلافية في العصر الوسيط ، وقد جاء في كتاب (سفر نامة) لمولانا شبلي النعماني بأن قسطنطينية الترك كانت أعظم مركز للكتب العربية ، وكان هناك ما يقرب من (٤٥) مكتبة في مدينة القسطنطينية وجميعها كانت في قصر الهمايون التي تعتبر من أقدم المكتبات . ويبلغ عدد الكتب الموجودة في هذه المكتبات حوالي ٨٥ ألف مجلد ، ورغم أن هذا العدد ليس كبيرا فان القسطنطينية كانت متميزة باحتوائها الكتب النادرة .

الفصل الخامس

المكتبـــات العامـــة

المكتبات العامة هي مؤسسات ثقافية يحفظ فيها تـــراث الانسانية الثقافي وخبراتها ليكون في متناول المواطنين من كافة الطبقات والأجناس والأعمار والمهن والثقافات .

وهي بهذا المعنى تعد من أهم الوسائل التي تعين على نشر المعرفة والارتقاء بمستوى الفن والثقافة في البيئة .

وهذا النوع من المكتبات ظهر في الشرق القديم منذ زمـــن بعيد . فمنذ نشأة الحضارات الأولى نجد المكتبات في قصـــور ومعابد ومساجد مصر وآشور وبابل .

وكان العرب والمسلمون في العصر العباسي والعصر الأموى بالأندلس ذوى شأن كبير في هذا المضمار ، فأسس الخلفـــاء والولاة في المدن الكبرى مكتبات من هذا النوع مثل بيت الحكمة في بغداد ودار العلم في القاهرة وخزانة سيف الدولة في حلب ومكتبة المستنصر في قرطبة .

والحديث عن المكتبات العامة طويل ، لكن لابدّ مـــن أن نعرف بعض الشيء عن أبنية تلك المكتبات وترتيبها وغيرها مـــن الأمور الفنية .

لقد كان تنظيم المكتبات العامة معروفا وموجودا عند العرب والمسلمين منذ قرون عديدة ، وكانت مناهجه وأساليبه تتطور مع الزمن تطورا بطيئا وفي ذلك ما يثبت وجود الحاجة اليه حينما كان انتاج الكتب دون ما هو عليه الآن .

وتحدثنا كتب السير عن اعتناء المسلمين وتقديرهم للكتب واعجابهم بها ، فترتب على هذا التقدير والاعجاب اهتمامهم بالمكتبات واقبالهم عليها ، وليس هذا فحسب وانما بذلوا للمكتبات ما بذلوه من حب وحرص وتقدير حافل بصور تدل على هذا الاتجاه الرائع .

ولذا نراهم قد اهتموا بأبنية المكتبات العامة اهتماما عظيما لاستقبال الجماهير ، وقد شيد بناء خاص على طراز معين لمكتبات شيراز ، وقرطبة ، والنظامية وكان البناء مزودا بحجرات متعددة يربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الرفوف مثبتة على الجدران لتوضع فيها الكتب وبعض الأروقة يخصص للاطلاع والبحوث العلمية .

كما كانت الحجرات تخصص للنسخ ، وبعضها لحلقات الدرس والدراسة وحجرات للموسيقى يلجأ اليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط ، وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثا فخما ومريحا . وقد فرشت أرضها بالبسط والحصير لتلائم أذواق الشرقيين الذين كانوا يميلون الى الجلوس على الأرض متقاطعة أرجلها للقراءة والكتابة . وكان للأبواب والنوافذ ستائر جميلة .

أما مدخل المكتبة فقد كانت له ستائر سميكة تحول دون دخول الهواء البارد في الشتاء الى داخل الحجرات . وهكذا نظمت بعض المكتبات .

انتشرت المكتبات العامة في العالم الاسلامي وحتى وقتنا هذا ، ولعل أهمها مكتبة بني عمار في طرابلس الشام وكان لهم وكلاء يجوبون العالم الاسلامي بحثا عن الروائع لضمها الى المكتبة ، وكان بها خمسة وثمانون ناسخا يشتغلون بها ليلا ونهارا في نسخ الكتب .

وقد ذهبت هذه المكتبة طعما للنار عندما احتل الصليبيون المدينة سنة (١٠٠٩م) .

وفي عهد الخليفة المنصور ، كان بيت الحكمة في بغداد (١٧٠هـ) وكانت مخطوطات التراث ودفاتر العلم تحفظ في قصر الخلافة ببغداد ، حتى ضاق عنها على سعته .

ثم كان عهد هارون الرشيد الذى اتجه الى اخراجها من جدران القصر بعد أن تضخم رصيدها من التراث المدون والمخطوطات المؤلفة والمترجمة لتكون مكتبة عامة مفتوحة الأبواب للدارسين وطلاب العلم . وبدأ بتأسيس دار رحبة فخمة للمكتبة ، نقل اليها تلك الذخائر ، فكانت أكبر وأقدم المكتبات العربية العامة .

وفي بيت الحكمة خصص جناح للترجمة التي واصلت نشاطها غير مكتفية بما سبق نقله من تراث الفكر القديم . وقد جيئ بكتب

الطب من أنقرة وعمورية وبلاد الروم وعهد بها الى ابن ماسويه السورياني الذى قام بترجمتها يعاونه عدد من المترجمين والكتبة الحذاق . كما جيئ بكتب الحكمة والفلك من فارس وعهد بها الى أبي سهل الفضل بن نوبخت الذى نقلها من الفارسية الى العربية مواصلا الحركة التي بدأها ابن المقفع بترجمة تراث الفرس .

وأضيف الى خزائن بيت الحكمة ، ما صنفه علماء العربية والاسلام في علومهم الأصلية ، الى جانب ما دونوه من تراثهم المجموع .

ومات هارون الرشيد وبيت الحكمة زينة بغداد عاصمة المدن العربية والاسلام ورصيده من ذخائر الكتب المؤلفة والمترجمة ، يعيد الى الأذهان ذكرى مكتبة الاسكندرية الكبرى .

فلما ولي عبد الله المأمون الخلافة لم تشغله شواغل السياسة والحكم عن الاهتمام ببيت الحكمة ، فبعث رسله الى آسيا الصغرى وقبرص والهند والحبشة في طلب الكتب ، وجنّد المترجمين لنقل ما حمل الى بيت الحكمة من كتب يونانية وسريانية وفارسية وهندية وافريقية حتى بلغ ما أنفقته الدولة على ترجمة كتب اليونان وحدها ثلاثماية ألف دينار فيما يروون .

وتتلقى بيت الحكمة جديد المصنفات العربية والاسلامية التي شارك فيها علماء المسلمين من الفرس والروم ومصر وغيرها من أقطار الدولة ممن تعرب آباؤهم وأجدادهم بعد الفتح .

ومن أشهر من تولّى منصب القيّم على بيت الحكمة في عصر المأمون : سهل بن هارون الفارسي الأصل وكان تحت اشرافه مئات من المترجمين والخطاطين والنساخ ، وظلت دار الحكمة ببغداد حتى لقيت مصيرها الفاجع مع سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ.

وأما دار الحكمة في القاهرة ، فقد أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي في جمادى الآخرة ٣٩٥ هـ ، وكما أشرت فقد أراد الحاكم بأمر الله الفاطمي بها أى (دار الحكمة) أن تكون منافسة لبيت الحكمة في بغداد ، فزين بناءها ، وفرش أرضها وعلق الستور على أبوابها ومداخل طرقاتها وحمل اليها من خزائن قصره والقصور الأخرى مالا يرى مثله وزودها بكل ما يحتاج اليه الباحث من ورق ومحابر وأقلام . وأقام فيها طائفة من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاه وعلماء اللغة ومعهم من الموظفين والخدم من أجل خدمة الناس من جميع الطبقات للتعلم أو القراءة أو النسخ . وبقيت دار الحكمة قائمة حتى عهد صلاح الدين .

ووجد في سامرة زمن ياقوت الحموى دار كتب عامة جليلة يصفها ياقوت بأنها لم يكن في الدنيا أعظم منها .

أما مكتبة سابور بن أرد شير فقد أسسها وزير بهاء الدولة البويهي سابور ، وسميت باسمه وكان ذلك سنة ٣٨٢ هـ - ويقول ابن تفرى بردى - وفيها بنى الوزير أبو نصر سابور بن ارد شير دارا بالكرخ سماها (دار العلم) ووقفها على العلماء ونقل اليها كتبا كثيرة .

وقد بلغ عدد كتبها (١٠٤٠٠) مجلد من أصناف العلوم المختلفة منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة . وفيها عدد كبير من الكتب التي امتلكها رجال مشهورون ، وأغلب الكتب بخطوط أصحابها وقد رد النظر في مراعاتها والاحتياط عليها الى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة .

وقد ازدهرت هذه المكتبة ازدهارا رائعا وذاع صيتها في الآفاق وقصدها الأدباء والعلماء والشعراء من الآفاق وضربوا اليها آباط الابل ، وذلك لشهرة الرجال الذين وقفوا أنفسهم على خدماتها وادارتها .

هذا ويعتبر أبو العلاء المعرى الشاعر المعروف أشهر من قصد بغداد وخاصة لزيارة دار العلم هذه والتعرف على محتوياتها وعلى الأدباء والعلماء الذين كانوا يرتادونها ويرد ذكرها في مؤلفاته ، كذلك يرد ذكر أمنائها أمثال عبد السلام البصرى وأبي منصور الخازن .

وقد كان المشرف على دار العلم آنذاك الشريف المرتضى وكان الخازن أبا منصور ، ويذكر أبو العلاء عنه " الذى أقدمني الى تلك البلاد مكان دار العلم بها " .

ومن المكتبات العامة أيضا دور العلم التي ظهرت في عهد الفاطميين وكانت أول المكتبات العامة التي اعتمدت على مبدأ الوقف في وقف الكتب ، ويمكن اعتبارها استمرارا لبيت حكمة المأمون ، ومرت دار العلم الفاطمية بثلاث مراحل مختلفة خلال

١٧٢ سنة وتأسست عام (٣٩٥ ق - ١٠٠٤م) ثم في (٤١٠ ق- ١٠٢٠م) تغيرت شخصياتها وأصبحت مركزا للدعاية ضد السنة ثم في سنة (٥١٣ ق - ١١١٩م) أغلقت لأنها ساعدت في تدبير مؤامرة لانقلاب ضد المبدأ السائد ، وعاشت فترة هامة بعد ذلك انتهت بدخول صلاح الدين . ومنذ افتتاحها ٣٩٥ هـ اهتم الحاكم بهذه المكتبة وببنائها ودبكورها حتى قيل بأنها أحسن مكتبة في الاسلام ، وجمعت كتبا في مختلف المواضيع في جميع أنواع العلوم والمعرفة وكتبا مكتوبة بخط أحسن الخطاطين والنساخ ، وعندما فتحت هذه المكتبة استقبلت جميع الناس دون تمييز طبقي وكان العمل ميسرا حيث أن الأدوات الضرورية كالحبر والورق والأقلام كانت تحت تصرف القراء . وكان بها العديد من الموظفين القائمين على خدمة الجمهور .

وعلى طول العالم الاسلامي انشئت دار العلم في البصرة وبغداد وطرابلس وغيرها .

كما انشئت دار العلم في القدس حيث أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بتحويل احدى الكنائس الى دار علم ، وعندما جاء الصليبيون تحولت دار العلم الى كنيسة مرة أخرى .

والى جانب دار العلم كان هناك مكتبات عامة في الجوامع مثل مكتبة جامع حلب ومكتبة جامع بني أمية ومكتبة العمراني .

ومن المكتبات العامة أيضا دار الكتب المصرية احدى روائع المكتبات العامة في العالم الاسلامي وهي لا زالت قائمة حتى

الآن فقد انشئت سنة (١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠م) وأهدى الى المكتبة عدة خزائن ضخمة لأكابر العلماء كالخزانة التيمورية . ولا تزال هذه المكتبة في تقدم وازدهار حتى صار مجموع ما بها من كتب أكثر من مليون مجلد وقد ضمت بعض نفائس المخطوطات العربية وهذه المكتبة مفتوحة أبوابها لكل طبقات الناس ، تزودهم بالعلم والمعرفة ويأتي اليها الطلاب والعلماء والباحثون من كافة الأقطار العربية والاسلامية .

ولقد أظهر المسلمون في ايران حماسا شديدا في البحث عن أقدم الكتب ، ويقول أبو معشر الفلكي : " بأنه منذ زمن بعيد كانت ثمة مكتبة كبيرة أسسها المسلمون هناك ، وتضم المزيد من الكتب القديمة ، ولما خربت هذه المكتبة وجد فيها عدد كبير من الكتب المدونة بالفارسية القديمة ، وكان القليل من الأساتذة ممن يستطيعون قراءتها ، ويقول ابن النديم : " بأنه في عام (٣٥٠ ق - ٩٦١م) استخرجت الأعداد الكبيرة من الكتب من معظم خزائن هذه المكتبة ولم يكن هناك من يحسن قراءة محتوياتها ، نفهم من ذلك بأنها كانت مكتبة عامة .

وعن الخزانات العامة أيضا سنتحدث عن : خزانة الكتب العثمانية في حلب ففي سنة ١١٥٠ هـ تولى الوزير عثمان باشا بن عبد الرحمن باشا الدوركي على ولاية حلب ، وقد ترجمه المرادى فأثنى عليه وقال : أنه تولى في مبدأ أمره تحصيل الأموال الميرية بحلب فأحسن السيرة ، واقتنى الأموال الكثيرة ، وبنى الدور والقصور والمعاهد ، وأجل هذه المعاهد المطبخ والجامع

والمدرسة اللذان تم بناؤهما في سنة ١١٤٣ ، وبنى فيها احدى وأربعين حجرة ، لطلاب العلم ثلاثون ، والباقي لأرباب العشائر والقاء الدروس وخزانة الكتب ، وفي أثناء عمارته المسجد والمدرسة سمي متسلما لحلب ثم أنعم عليه برتبة الوزارة وولاية طرابلس ، ثم ولاية دمشق ثم ولاية حلب ١١٥٠ ، وما زال يتقلب في مناصب الدولة الى أن استقر في ولاية جدة ومشيخة الحرم المكي ، وفي مكة توفاه الله في سنة ١١٦٠ هـ .

وقد كانت مدرسته هذه ولا تزال من أعظم مدارس الشهباء بناء وواردات وأكثرها طلابا ، وقد وقف على مؤسسته هذه ، المؤلفة من الجامع والمدرسة والمطعم ومكتب الأطفال وخزانة الكتب عدة وقفيات قال في أولاهن وكان ذلك في سنة ١١٤٢هـ : أنه وقف هذه المدرسة وجعل فيها خطيبا وأئمة ومدرسا ومحدثا وواعظا ومعلما للأطفال ، وقراء للقرآن ، وبوابين وقيمين على السبيل والمكتبة .

وجاء في وقفية ثانية مما يتعلق بموظفي حجرة المكتبة والمدرسين ما يلي : " ... وفي كل يوم ١٢ عثمانيا لحافظ الكتب والمدرس والمحدث ، ومن يأخذ الكتب ويفتح باب الحجرة في كل يوم اثنين وخميس ، يدخل الطالب ويجلس في المحل الذى يريده ويطالع ما يريده من تلك الكتب ، ويكتب منها ما يريده ، ولا يخرج منها كتابا الى خارج الجامع ، ويمنع اخراج شيء من الكتب وترم الكتب وتصلح في نفس المكتبة ، ووظيفة حافظ المكتبة في كل يوم ٢٠ عثمانيا " وقال في وقفية أخرى

مؤرخة سنة ١١٥٢ انه أضاف الى الموظفين عددا آخر من المدرسين والوعاظ والقراء وغيرهم .

وقال في وقفية أخرى - وهي الحادية عشرة - وهي مؤرخة في سنة ١١٥٢ أيضا : انه وقف على الموظفين والمستخدمين من الناظر والمدرس والخطيب والمحدث والامام والوعاظ وخازن الكتب والجابي والكتاب والخدام ومعلم الأطفال والطلبة في أيام الجمعة وشهر رمضان أن يعطى لكل منهم طاسة من الأرز والزردا ورغيفان من الخبز وهذا عدا الراتب الرسمي .

قال الطباخ ما خلاصته " . . . هذه المدرسة أعظم مدارس الشهباء شأنا ، وأوسعها بناء وقبلتيها قبة واحدة شاهقة على جدران عريضة أمامها ضفتان كبيرتان عليهما أربعة عواميد ،وعلى طرفيها ايوانان كبيران ، بجانبها الأيمن منارة وبستان ،وصحن المدرسة واسع جدا ويحيط به ثلاثة أروقة ، ومن ورائها أربعون حجرة ، وفي الجهة الشرقية حوش صغير تشتمل على عدة حجر . وخارج المدرسة في الجهة القبلية مكتب للأطفال وسبيل ماء ، وعن يمين الديوان الغربي قاعة التدريس وحجرة المكتبة وقد وضع فيها الكتب القيمة من المخطوطات " والحق أن هذه الخزانة هي من أغنى خزائن كتب المعاهد الاسلامية في حلب بما وقفه عثمان باشا عليها من المخطوطات النفيسة ، وهي مسجلة في وقفية خاصة .

وقد اهملت هذه المكتبة وسرق منها كثير من نفائس مخطوطاتها وذلك لاهمال متولي الوقف وقيم المكتبة .

ومهما يكن من أمر فان هذه الخزانة تعد من الخزائن الكبرى لما اشتملت عليه من المخطوطات النادرة على الرغم مما فقد منها .

ومن الخزانات العامة أيضا نجد ، خزانة الجامع الأموى الكبير في حلب وهي أقدم خزائن حلب ، وقد كانت ضخمة تضم نفائس كتب الدين والعربية والأدب والتاريخ وعلوم الحديث وكتبه ، وقد ازدادت كتبها حين تولى أمور الديار الحلبية بنو حمدان ، فقد ذكر الذهبي في تاريخ الاسلام ما نصه "كان بجامع حلب خزانة للكتب وكان فيها عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة ابن حمدان " .

وكان لهذه الخزانة قيمون يتولون الاشراف عليها . حفظ لنا التاريخ اسماءهم منهم : أبو الحسن ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب النحوى الحلبي أحد علماء الشيعة الذى ترجم له السيوطي في بغية الوعاة فقال : هو ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب أبو الحسن الحلبي النحوى ، وقال الذهبي : كان من كبار النحاة شيعيا ، صنف كتابا في تعليل قراءة عاصم وتولى خزانة الكتب بحلب لسيف الدولة فقال الاسماعيلية : هذا يفسد الدعوة ، لأنه صنف كتابا في كشف عوارهم وابتداء دعوتهم ، فحمل الى مصر فصلب في حدود الستين وأربعمائة . . . " .

ويقول الأستاذ المرحوم الشيخ راغب الطباخ نقلا عن تاريخ الاسلام للذهبي : أنه كان أحد علماء الشيعة وكان من كبار

النحاة ، صنف كتابا في تعليل قراءة عاصم أنهـا قراءة قريـش . وكان من كبار تلاميذه ابن الصلاح . تولى خزانة الكتب بحلب ، فقال من بحلب من الاسماعيلية : ان هذا يفسد الدعوة ، وكان قد صنف كتابا في كشف عوارهم وابتداء دعوتهم ، فحمل الى صاحب مصر فأمر بصلبه ، واحترقت خزانة الكتب التي في الجامع بحلب وكان فيها عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة . ويذكر ابن خلكان في ترجمة تاج الدين محمد الخراساني المسعودى : أبو البركات الهاشمي الحلبي قال : لما دخل صلاح الدين الى حلب سنة ٥٧٩ هـ نزل المسعودى المذكور الى جامع حلب وقعد في خزانة كتبها الوقف ، وكان محلها في الشرقية ، واختار منها جملة أخذها لم يمنعه منها مانع ولقد رأيته يحسوها في عدل .

وظلت هذه المكتبة عامرة حتى جاء صلاح الدين وقادته فسيطروا على المؤسسات العامة ومن بينها خزائن الكتب في القاهرة ودمشق وحلب ، وما سمعته عن المسعودى وعمله في خزائن حلب قد فعل مثله القاضي الفاضل في خزانة القاهرة .

ويظهر أنه قد ظلت خزانة جامع حلب موجودة طوال العصور المتأخرة ، فقد وجدت في كثير من الوقفيات الحلبية التي وقفها أصحابها على الجامع المذكور ذكرا لكتب ورسائل وآثار كانوا يقفونها على طلاب العلم في الجامع المذكور .

ونذكر أيضا خزانة المدرسة الخسروية فقد تولى حلب في سنة ٩٣٨ هـ الوزير خسرو باشا وكان محبا للعمران والاصلاح

ولكنه لم يطل مقامه في المدينة ، فنقل واليا على مصر سنة ٩٤١هـ ثم صار وزيرا للخليفة العثماني ، وما أن استقر في دار الخلافة حتى أمر مولاه فروخ بن عبد المنان بانشاء جامع وتكية ومدرسة في حلب ، فشاد مولاه المدرسة والجامع والتكية في بناء واحد واسع في المحلة المعروفة بالسفاحية أمام باب القلعة ، ووقف عليها الوقوف الدارة ، ثم جاء من بعد ذلك مصطفى باشا بن سنان أخو خسرو باشا فزاد في أوقافها حتى أضحت أغنى مدارس الشهباء ، وتعاقب عليها أهل الفضل يدرسون فيها المذهب الحنفي والعلوم العربية .

وقد أقيمت فيها خزانة كتب ضخمة حافلة بالمخطوطات والنفائس ، وظلت على ذلك الى أن وقعت الزلزلة العظمى بحلب ١٢٧٣ فتصدعت تصدعا عظيما ، وتهدم كثير من بنائها ، وتبعثرت مخطوطاتها ، وأضحت فترة من الزمن مأوى للغرباء والفقراء الى أن تولى حلب جميل باشا سنة ١٣١٢ فرمم مصلاها وأصلح بعض شأنها فأصبحت صالحة لاقامة الشعائر الدينية .

وفي سنة ١٣٣٠ تولى ادارة أوقافها المرحوم الشيخ محمد رضا الزعيم الدمشقي والد المرحوم حسني الزعيم فسعى في استرداد أوقافها وأصلح ما يمكن اصلاحه من عمرانها ، وأعيد بناء قاعات التدريس وحجرات الطلاب الى أن كانت سنة ١٣٤٠هـ فعاد للمدرسة سالف عهدها وأضحت أجل مدارس حلب وجعلت فيها خزانة كتب كبيرة كانت نواتها الخزانة المحفوظة في الجامع

الأموى ، وما تبعثر في المدارس والتكايا والربط من الكتب ، وما تبرع به بعض وجوه المدينة كالسيد محمد مرعي باشا الملاح حاكم دولة حلب وغيره ، فغدت مكتبة حافلة بالكتب ثم ارتأى أهل الحل والعقد في المدينة أن ينقلوها من المدرسة الخسروية الى بناء خاص بها فاختاروا لها المدرسة الشرقية ، فنقلت الى ذلك المكان وأطلق عليها اسم : " دار الكتب الاسلامية " .

وفي المغرب نجد أن فكرة تأسيس الخزائن العامة بالمغرب بالصفة التي نعهدها ونعرفها أى الصفة العمومية لم تظهر واضحة الا أيام بني مرين في القرن السابع الهجرى ، وكانت هذه الخزائن العلمية المرينية توجد غالبا ازاء مدارسهم المؤسسة لطلبة العلم .

وأول خزانة من هذا النوع هي الخزانة التي أنشأها أبو يوسف يعقوب المريني داخل مدرسته المعروفة بمدرسة الخلفاويين قديما وتعرف الآن بمدرسة الصفارين ، وذلك سنة ٦٧٩هـ ، فقد ذكر المؤرخون أن يعقوب المذكور وقف عدة كتب على المدرسة المذكورة من ضمنها الكتب التي قدمها ملك اسبانيا ليعقوب أثناء وفادته عليه بأحواز الجزيرة الخضراء مستسلما ومستنصرا ، وهكذا تلاه ابنه أبو سعيد في كل من أيام ولاية عهده وبعد استقلاله بالامارة .

ثم جاء أبو الحسن وبقي الأمر هكذا في حركة علمية ونشر للمعرفة الى أن جاء أبو عنان المريني وأسس الخزانة العلمية

بمسجد القرويين بعد ما صار جامعة يقصدها الطلاب من كل ناحية .

ومن المكتبات العامة أيضا نذكر خزانة أبي عنان بالقرويين حيث قال ابن القاضي في أوائل كتابه الجذوة عند ذكر تاريخ عمارة القرويين " وأما خزانة الكتب التي يدخل اليها من أعلى المستودع الذى بها ، فانه لما كان من رأى أبي عنان حب العلم وايثاره والتهمم فيه والرغبة في انتشاره والاعتناء بأهله ، انتدب بأن صنع هذه الخزانة ، وأخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع العلوم كعلوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان وغير ذلك من العلوم على اختلاف أنواعها ، وعين لها قيما ليضبطها وذلك في جمادى الأولى ٧٥٠ هـ .

ويتضح من هذا النص الصريح أن أول خزانة بالجامعة القروية ، أسست للطلبة وعموم المطالعين ، هي خزانة أبي عنان هذه ، ولا تزال هذه الخزانة قائمة الى الآن على حالتها القديمة بمستودع القرويين الموالى لخصة العين ، وبأعلى بابها الأثرى كتابة منقوشة في الخشب تنص على تأسيس الخزانة ، ونسبتها لأبي عنان رحمه الله ، وقد كانت تحتوى على نفائس وذخائر يوجد بعضها بالخزانة المنصورية الحالية ، نقل ذلك لها بعد تأسيس أحمد المنصور للخزانة الجديدة .

الفصل السادس

المكتبات المدرسية

لقد بلغت الحضارة الاسلامية أوج مجدها في العلم والمعرفة والحضارة والازدهار يوم أولت اهتمامها بانشاء المدارس من أجل تعليم الناس جميعا وبها أى (بهذه المدارس) الحقت المكتبات وهو الشيء الطبيعي المكمل لهذا الرقي والازدهار .

ومع معرفتنا بأن هذه الخطوة جاءت متأخرة نسبيا ، حيث أن المسجد كان المكان الطبيعي للتعليم ، كما كانت الجوامع والكتاتيب أيضا ، الآ أن بناء المدارس جاء في مرحلة متأخرة من مراحل الحضارة الاسلامية .

وتقول النصوص التاريخية أن أول من أسس مدرسة في الاسلام هو نظام الملك وزير السلاجقة الشهير في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى .

الآ أن بناء المدارس بدأ شيئا واضحا في عدد من المدن الكبرى في شرقي الامبراطورية الاسلامية مثل بغداد وأصبهان ونيسابور والرى ومرو وغيرها ، وأشهرها جميعا نظامية بغداد التي تخرج منها عدد كبير من علماء العالم الاسلامي حتى عصر المغول .

وأسس نظام الملك مدرسته هذه في بغداد سنة ١٠٦٥م وافتتحت رسميا سنة ١٠٦٧م ، وقد خصصت منذ اللحظة الأولى

لتدريس السنة وخاصة المذهب الشافعي ، وأضاف اليها نظام الملك علم الكلام وقد ألحق بها مكتبة غنية منظمة زودها نظام الملك بكل غريب ونادر .

فقد ذكر أن عبد السلام القزويني أهدى نظام الملك أربعة أشياء فريدة في بابها منها غريب الحديث لابراهيم الحزمي بخط أبي عمر بن حيوة في عشرة مجلدات فوقفه نظام الملك على طلاب المدرسة النظامية ببغداد .

وقد تخرج في نظامية بغداد خاصة عدد كبير من شيوخ العلماء وأكابرهم وأشهرهم الغزالي الذى درس فيها مدة تزيد عن السنتين وكذلك درس فيها ابن شداد الذى ألف كتاب السيرة اليوسفية أو كما تعرف بسيرة ابن شداد ، وهي ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبي وما قام به من أعمال ، وقد زارها ابن جبير وظلت شامخة لم تمس بعد الغزو المغولي .

وزارها الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة عام ١٣٢٧ م ووصفها في رحلته ، ثم ذكرها سنة ١٣٤٠ م المؤرخ والرحالة الفارس حمد الله المتوفى ، في رحلته عندما زار بغداد وتحدث عنها .

كذلك كان كثير من العلماء يوقفون كتبهم على النظامية ، فقد أوقب محب الدين بن النجار صاحب ذيل تاريخ بغداد خزانتين من الكتب للنظامية وكان ذلك في النصف الأول من القرن السابع للهجرة وقيمة هذه الكتب ألف دينار .

هذا وهناك مدارس أخرى أنشئت في بغداد قبل سقوطها بيد المغول ٦٥٦ هـ ، ولعلها من أفخم المدارس التي أنشئت والتي عرفت باسم مؤسسها الخليفة المستنصر بالله العباسي ، وان وصف المؤرخين لهذه المدرسة وللتكاليف التي أنفقت عليها والعناية والرعاية والاهتمام التي أحيطت بها يعطي الانطباع أنه لم يبق حتى زمانها ما هو أجمل ولا أفخم منها . وكان الخليفة المستنصر محبا للآداب مشجعا عليه مقربا لأهله .

وأشير هنا الى أن بناء المدارس انتشر في الاسلام انتشارا هائلا ، فقد امتلأت مدن سوريا ومصر والعراق بالمدارس والحقت بها مكتبات ، فعلى سبيل المثال نذكر ، نور الدين الشهير الذى بنى مدرسة في دمشق والحق بها مكتبة ، وكذلك فعل صلاح الدين وأفراد أسرته من بعده ، والشيء نفسه قام به عدد عظيم من أمراء المسلمين وكبرائهم وعلمائهم وأغنيائهم .

فالقاضي الفاضل وزير صلاح الدين أسس مدرسة أسماها الفاضلة في القاهرة وأودع فيها نحو ألف مجلد مما أخذه من خزائن الفاطميين .

ويذكر ياقوت الحموى عدة مدارس في مرو في زمانه تحوى مكتبات ضخمة وكانت أبوابها مفتوحة للدرس والمطالعة والتزود بالعلم والمعرفة .

هذا ويعتبر العصر العباسي عصر الابداع في الحضارة الاسلامية وفيه نضجت الحضارة الاسلامية ، وأنشئت العديد من

المدارس التي انتشرت في أرجاء العصر العباسي . وألحق بها مكتبات اشتملت على أنواع كثيرة من أنواع المعرفة .

ومن المكتبات الملحقة بالمدارس أيضا في بغداد مكتبة ابن جبيرة ، ومكتبة مدرسة الفاخرية ، ومكتبة مدرسة الجوزية ، ومدرسة بشارع رزق الله ، ومدرسة عبيد الله ،ومدرسة المسعودية .

وكان في دمشق نحو ثلاثين مدرسة في القرن الخامس الهجرى يدرس في تلك المدارس الأئمة من الاعلام . ومن أشهر مدارسها دار الحديث النورية والنورية الكبرى ، والصلاحية والعادلية والظاهرية وغيرها .

كانت هذه المدارس للتعليم العالي ، وأما الكتاتيب والمدارس الأولية فهذه أكثر من أن تحصى ، ولكل منها مكتبة خاصة بالمواد التي تدرس .

كما كان في مصر مدارس كثيرة كالمدرسة الصالحية والصاحبية وغيرها . وقد ذكرها المقريزى في خططه .

وقد اشتهرت عدة مدارس في مدينة القدس وفي حلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها .

وفي عصر المماليك البحرية انشيء العديد من المدارس في القاهرة ووجدت في كل مدرسة مكتبة خاصة بها ، نذكر منها المكتبة الظاهرية بخط بين القصرين التي أسسها الظاهر بيبرس

البندقداری . وقد تمّ بناؤها (٦٦٠ - ٦٦٢هـ) ووقف بها خزانة كتب جليلة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم ورتبت بها عدة دروس للفقه الشافعي والحنفي والحديث والقراءات. وكانت من أجل مدارس القاهرة الاّ أنها قد تقادم عهدها .

كذلك أسس الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق وقد حوت نفائس الكتب والذخائر العلمية ، لدراسة المذهب الحنفي والشافعي والحديث .

وقد اعتبرها الرحالة ابن بطوطة من جملة مدارس الشافعية الكبرى ، ولم يبق من كتبها الاّ القليل ، عندما اجتاح المغول بلاد الشام وبسبب الاعتداء على أوقافها .

ولا زالت هذه المكتبة عامرة الى يومنا هذا بأنفس المخطوطات كدار للكتب الوطنية مثلها في ذلك مثل المدرسة الاقبغاوية بالقاهرة التي توجد فيها المكتبة الأزهرية الآن .

أما المدرسة الناصرية بجوار القبة المنصورية بخط بين القصرين ، كان السلطان زين الدين كتبغا المنصورى قد بنى منها جزءاً ثم عزل فاشتراها الناصر محمد بن قلاوون ، وبنى بجواره قبة ، وكملت عمارتها سنة ٧٠٣ هـ ، ووقف عليها الناصر محمد أوقافا جليلة بمصر والشام وجعلها للمذاهب الأربعة .

ويقول المقريزى : " وجعل بها خزانة جليلة عامرة من أجل الدارس ، وقد رتب بها شاهدا لخزانة الكتب يحفظ ما فيها من

الكتب ويضبط ما يؤخذ منها للاستعمال ، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة " .

وكان هذا النظام متبعا في معظم مكتبات المدارس المملوكية ، وكان يصرف له أى (الشاهد) كل شهر ثلاثين درهما أو ما يقوم مقامها من النقود .

وقد رتب بالمدرسة بوابا حافظا محتاطا في أمور المدرسة والقبة ومنها المكتبة من الداخلين والخارجين اليها مانعا من يرتاب به ومن يكثر الدخول لغير حاجة . وهو يلازم حفظ الباب ليلا ونهارا وفتحه وغلقه في الأوقات المعهود بها ولا ينفصل عن الباب الآ لعذر .

وقد زودت المدرسة المنكوتمرية التي أنشأها سيف الدين منكوتمر الحسامي نائب السلطنة بحارة بهاء الدين بالقاهرة ٦٩٨ هـ بخزانة كتب لتدريس المذهبين المالكي والحنفي وجعل عليها وقفا ببلاد الشام .

وكان بالمدرسة الطيبرسية التي أسسها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش في عهد السلطان لاجين ٧٠٩ هـ لتدريس الشافعية والمالكية . وهي على يمين الداخل الى الجامع الأزهر الشريف ـ خزانة كتب عظيمة .

كذلك وجدت بالمدرسة الملكية ـ نسبة الى الحاج سيف الدين آل مالك الجوكندار الناصرى الذى بناها ٧٠٩ هـ تجاه

داره بخط الشهيد الحسيني ـ خزانة كتب عظيمة ، وعمل فيها درسا للشافعية وجعل لها عدة أوقاف ويظهر أنها بقيت من أشهر مدارس القاهرة حتى عهد المقريزى .

وكان بالمدرسة الصاحبية ـ التي أنشأها الصاحب صفي الدين عبد الله بن شكر في القاهرة بسويقة الصاحب للمالكية وتدريس النحو ـ خزانة كتب كما يقول المقريزى .

كذلك كان بالمدرسة السلطانية العظيمة ـ التي أنشأها السلطان أبو المحاسن حسن بن قلاوون ، بخط سوق الخليل بالقلعة سنة (٧٥٨ - ٧٦٤ هـ) لدراسة المذاهب الأربعة والحديث والقراءات ـ مكتبة عظيمة وصلت لها مجموعة من الكتب والمصاحف التي أوقفها السلطان المذكور على طلبة العلم الشريف بها . ويظهر أن المدرسة السلطانية كان بها الكثير من كتب علم الحديث وكتب اللغة والنحو ، وقد اشترطت وثيقة الوقف على مدرس الحديث أن يقوم بالتدريس من كتب الحديث المعتمدة ومن كتب الرقاق .

ومن كتب الحديث كتاب السنن لأبي داود السمستاني . وكانت المدرسة الأشرفية التي أسسها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٤ هـ وكملت عمارتها سنة ٧٧٧ هـ من أفخر المدارس بناء وزخرفة ، ولا شك أن مكتبتها كانت من أكبر المكتبات المدرسية المملوكية وزخرت بالكتب النفيسة والمصاحف الشريفة .

وهناك أيضا من مكتبات المدارس في العالم الاسلامي ، المكتبات التي أنشأها المماليك الجراكسة في عصرهم حيث انتشرت المدارس في عصر الجراكسة في القاهرة ، وكانت معظم هذه المدارس بها خزانات عامرة بالكتب الفقهية والعلمية والأدبية والمصاحف والربعات الشريفة .

ومن هذه المدارس مدرسة خانقاة الظاهر برقوق التي أسسها (٧٨٦ - ٧٨٨ هـ) في خط بين القصرين بالقاهرة ، وكان بها سبعة دروس لأهل العلم أربعة منها على المذاهب الأربعة وثلاثة للتفسير والقراءات .

وفي أواخر عهد المماليك الجراكسة . أسس السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى مدرستـه الشهيرة بخط الجرابشيين بالقاهرة سنة (٩٠٨ - ٩٠٩ هـ) وكان بها خزانة كتب حوت من صنوف الكتب والمصاحف الشيء الكثير ، ورتب فيها أمينا ثقة يقوم على خدماتها .

أما المدرسة التي أنشأها السيفي بن عبد الله بن عبد الكريم بن عمر الأشرف قانصوه الغورى ، المعروف بخط الجودرية بالقاهرة التي كملت عمارتها في رمضان ٩٢١ هـ ، فقد كان بها خزانة كتب ولها خازن أو أمين .

وأشير هنا الى أن المكتبات في المدارس المملوكية كانت موضع اهتمام السلاطين والأمراء على السواء ، ولم تكن تهمل أو

تترك مغلقة على ما فيها من الكتب بل كانت محور النشـــــاط التعليمي ، ولم تكن للتعليم فقط بل كانت للتعليم وتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها والنقل مما تحويه من مـــادة علمية ثمينة عظيمة القيمة .

وتذكر لنا احدى الوثائق بأن مهمة المدرسة هي أن تسهل على الطلاب الفهم وتحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف وتسلك بهم مسلك الافادة والتعليم وتسهيل ما صعب فهمه . وكانـــت ـ أيضا ـ مكانا للرقي الفكرى والاشعاع الروحي ومركزا للمعرفـــة ، ووحدة وظيفية لها غاية عظيمة ورسالة حيوية . وكانت ثرواتهـــا الضخمة من مجموعات الكتب في خدمة جمهور المدرسة وحده مـــن المدرسين والطلبة فقط بكل ما لهم من مطالب وقاصرة عليهـــم الى حد كبير ، حيث أن الاهتمام بالمكتبة المدرسية لتحقيـــق فلسفة التعليم في العصر الوسيط باعتبارها المركز الفعال للنشاط المدرسي .

كما كانت المكتبة ركنا أساسيا في التربية في هذه المـــدارس لا يمكن الاستغناء عنها ولا يمكن انكار فضلها لأنها كانت تسهـم بقدر كبير في تأكيد فكرة التعليم الجامعي بمعناه الأصيل السليم .

ولأن أهم ميزة للتعليم الجامعي المملوكي في هذه المدارس هي الحرية التي كانت عنصرا رئيسيا متوفرا بدرجة كبيرة ، والمناهج الدراسية المتخصصة والمرنة في آن واحد التي لم تكن مقيـــدة أو محددة بأستاذ المادة أو آرائه وشروحه فقط ، بل كانت تعتمد

أولا وقبل كل شيء على الكتب الموجودة بمكتبة المدرسة والبحث فيها .

وهكذا كانت المكتبة المدرسية مؤسسة اجتماعية تعليمية لا تتقيد بمنهج مرسوم أو برنامج معين وتغلب عليها الصبغة الحرة بدلا من الصبغة الرسمية في المدرسة ، لأن خير تعليم هو ذلك الذى يستطيع الفرد أن يناله أو يحصله بنفسه أى التعليم الذاتي في جو تسوده الحرية والرغبة والميل ، وهذا يؤدى الى الاعتماد على الذات في البحث عن المصادر ومن هنا تبرز شخصية الباحث .

يتضح لنا مما سبق ما وصلت اليه مكتبات المدارس ومدى اهتمام الحكام والأمراء والمماليك والعلماء والأفراد بها والحرص على أن تكون بكل منها مكتبة من أجل تسهيل عملية التحصيل لدى الطلاب والدارسين ، ويدلنا أيضا على ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية في النواحي التعليمية وحرص حكامها على ايصال العلم للجميع .

الفصل السابع

مكتبـات المساجد والجوامع

ان المكتبات في الاسلام قد نشأت مع نشأة المساجد ، حيث يعتبر المسجد من مظاهر الحضارة وعناصرها في الاسلام لأهميته الكبيرة في الحياة الدينية والسياسية والفكرية ، ففيه تقام فرائض الدين وفيه يبايع الخلفاء والأمراء وتبحث أمور السلم والحرب، وكثيرا ما يحدث فيه التجمعات السياسية ، وكان الأمير يعلن فيه ما أنيط به من أمر وما اعتزمه ، وبقي المسجد الى أواخر القرن الثالث الهجرى على الأقل المدرسة التي يتلقى فيها الناس العلم والمعرفة ، ويلتقي فيه العلماء والأدباء فيتناقشون أو يلقون المحاضرات في حلقاتهم وينشرون علمهم ، كما يقوم القصاصون والوعاظ بوعظ الناس وارشادهم وتبصيرهم بمبادئ الدين الاسلامي .

وقد صنف الكثير من الكتب في المساجد الاسلامية يؤكد ذلك المخطوطات الكثيرة المنتشرة في أنحاء العالم ، وفيها يشيد مؤلفوها أو ناسخوها بأنها ألفت أو نسخت في عدد من المساجد . كما أن كتب التاريخ والتراجم تزخر بأخبار العلماء والفقهاء والأدباء الذين اتخذوا من المساجد أمكنة فيها يتزودون بالعلوم والمعارف وفيها يقيمون ويعيشون ، ويدرسون ويتدارسون ويؤلفون آثارهم الفكرية ، ومن أجل أن يحقق المسجد

مطامح مريديه وبيسر عملهم العلمي فقد ألحق في كل مسجـــد مكتبة عامرة تضم عددا وفيرا من الكتب في مختلف مواضيـع الأدب والعلم ، وتسابق الناس الى تزويد المساجد بالكتب وكان بعـض المسلمين يؤلفون الكتب ويضعونها في المساجد كوقف لتعـم فائدتها بين الناس ، ويكسب بها المؤلف الأجر والثواب ، كمـا يحافظ على كتبه من أن تبددها الأيدى ، وهكذا صارت بعـض المساجد أشبه بالأكاديميات الثقافية وكان لهذا الأثر الكبير في نجاح الدرس والتدريس والبحث والتصنيف .

من هنا نجد أن المسجد لم يكن مكانا خاصا للعبـادة فحسب ، بل كان مركز الحياة الاجتماعية والسياسية ، ومركـز ادارة الدولة وتيسير أمورها ، كما كان محط أنظار المسلميـن ومعقد حلقات العلم واجتماع العلماء وتعليم أبناء المسلميـن القرآن الكريم والتفسير والحديث وأصول العربية وغير ذلك .

ومن ثم فلا عجب من اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلـم ببناء مسجد قباء بعد الهجرة مباشرة ثم تأسيس مسجده (صلى الله عليه وسلم) في المدينة في الأيام الأولى من وصوله اليها ثم كثرة المساجد فيها أى (في المدينة) وفي البلاد الاسلامية .

ولما كان المسجد أولى المعاهد في صدر الاسلام كـان لا يخلو من صحف القرآن الكريم وتفسيره وصحف الحديث وغـيره . ويسعنا أن نقول أن أولى المكتبات كانت بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث كان يجمع فيه ما يدونه كتاب الوحي مـن

التنزيل الحكيم ، ومن الواضح أن مكتبة المسجد ظهرت للوجود منذ أن اتخذ المسلمون المسجد مكانا للدراسة ، ذلك لأنه لا دراسة دون كتب ، واذا علمنا أن الدراسة على مختلف مراحلها وبأغلب فروعها كانت تتم في المسجد والجامع حتى زمن قريب من عهدنا الحاضر .

وكفانا أن ندرك أهمية المكتبة الملحقة بالمسجد وأن أغلب المساجد خاصة الهامة منها كانت ولا تزال تمتلك مكتبة خاصة بها ، وهذه المكتبة لا تحتوى كتبا دينية فقط وانما - بالاضافة اليها - كتبا فلسفية وعلمية ، وقد كانت معظم العلوم تدرس في المساجد .

وقد ازدهرت بعض المساجد الهامة في المدن الاسلامية وأصبحت مركزا عقليا من أكبر مراكز التعليم والتدريس جذب اليه الطلاب من جميع أنحاء العالم الاسلامي للتزود بالعلم والمعرفة ومن هذه المساجد تلك التي أقيمت في مدينة الكوفة حيث عمرت تلك المدينة بعدد كبير من المساجد الاسلامية وهي منبثة في مختلف أرجائها وفي جميع طرقها ومحلاتها وأسواقها ومن أمثلتها المسجد الجامع الشهير بهذه المدينة ، ومسجد السهلة ويرتقي عهدها الى مستهل القرن الأول الهجري . ومن مساجدها الصغيرة الباقية : مسجد الحمراء ، ومسجد الحنانة ، ومسجد زيد بن صوحان ، ومسجد صعصعة بن صوحان . وهذه المساجد لا تزال تحافظ على كيانها ومركزها حتى الوقت الحاضر ،

وفي هذه المساجد تعقد الحلقات العلمية للدرس والمناظرة والوعظ والمحاضرات . ونجد في كتب التاريخ والأدب أدلة واضحة على هذا النشاط الواضح ، ومما يؤيدنا أيضا أن المسجد الجامع الشهير بالكوفة كان مزدحما بالناس ، ولما ولي زياد بن أبيه الكوفة (٥٠ هـ - ٦٧٠ م) لاحظ ذلك فزاد في سعة المسجد وجعله يتسع لستين ألف شخص ، أما النشاط العلمي الذى شهده مسجد الكوفة فقد اشتهر بكونه مدرسة لاقراء القرآن الكريم وفيه كان شيوخ الاقراء يجلسون فيلقنون طلاب العلم القراءات التي رووها بأسانيدهم ، وكان عبد الله بن حبيب أول من جلس لاقراء القرآن في مسجد الكوفة . ومن القراء الذين تخرجوا في هذا المسجد حمزة الزيات أحد أصحاب القراءات السبع ، وشيبان بن ثعلبه الكوفي ، وفي هذا المسجد ظهرت بوادر مبادىء الفقه المبني على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة ، وفيه ظهرت مدرسة لتفسير القرآن ، وكان من أساتذتها سعيد بن جبير المستشهد سنة ٩٤ هـ . وكان مسجد الكوفة محلا لانشاد الشعر ونقده والتلاحي فيه وفي علوم العربية الأخرى . ففيه جرت مناظرة ثعلب مع محمد بن حبيب ، وجرى فيه مجلس الكميت مع حماد والطرماح وغيرهما ، وفي مسجد الكوفة أنشد عمر بن حماد قصيدة لوالده ، وكان الكميت يعلم الصبيان في مسجد الكوفة .

وكان اسحاق بن مرار الشيباني وهو من اللغويين الكوفيين (توفى سنة ٢٠٦ هـ - ٨٢١ م) قد جمع أشعار نيّف وثمانين

قبيلة من العرب ودونها ، وكان كلما عمل منها قبيلة دونهـــا وأخرجها الى الناس في (مجلد) وجعلها في مسجد الكوفة .

وكما كان يحدث في مساجد الكوفة ، نرى في جامع بــني أمية في دمشق وفي مساجد مكة والمدينة وفي الجامع الأزهـــر الشريف في مصر ، وفي جامع المنصور في بغداد وفي جامـــع قرطبة وطليطلة في الأندلس ، وكان للحلقات التي تعقد فــي جامع طليطلة شهرتها وأهميتها ، جذبت اليها الطـــلاب المسلمين والنصارى على السواء حيث كان يقصدها الطلاب مــن جميع أنحاء أوربا من أجل التعلم والحصول على المعرفةوالخبرات ، وقد احتفظت طليطلة بمكانتها هذه بعد سقوطها على يـــد الاسبان ١٠٨٥ م ، حيث وجد هؤلاء مكتبة غنية عامرة حافلـــة بالكتب في أحد مساجدها ، وقد بلغت شهرة هذه المكتبة مــن حيث هي مركز للثقافة أقصى البلاد النصرانية في الشمال ، وهنا يجدربنا أن نشيد الى أنه لم يذكر اسم المسجد الذى وجـدت فيه هذه المكتبة . وقد كانت هناك مجموعات ضخمة مهمة مـــن الكتب في أغلب فروع المعرفة في كل من الحرم المدني والحـــرم المكي حيث غذاها كبار المسلمين بالكتب مدى العصور .

وكلنا نعرف الجامع الأزهر الشريف - أقدم جامعة في العالم لا تزال في الوجود - يحتوى هذا الجامع ولا يزال حتى وقتنـــا الحاضر مكتبة حوت كتبا في كل العلوم والمعارف وفيها ومنهـــا تغذى العلماء والطلاب وجميع أبناء العالم الاسلامي الذيـــن قصدوها من ثمرة العلم والمعرفة ، ومنها نبغ العلماء .

وكان للجامع الأزهر منذ عصر انشائه الأول أيام الدولة الفاطمية مكتبة قيمة يتكون أغلبها من آثار الفقه الشيعي . وقد روى ابن ميسر في أخبار سنة (٥١٧ هـ) أن الاشراف على خزانة الكتب كان قد أسند الى داعي الدعوة أبي الفخر صالح ، وقد كان من أكبر الرؤساء الروحيين في عصر الدولة الفاطمية ، وهذا يدل على أهمية خزانة المكتبة الأزهرية يومئذ ، ثم بعد ذلك تنوعت محتوياتها حيث غدت في القرن التاسع الهجرى من أعظم المكتبات الاسلامية . ولما تطورت الظروف وبرزت أهمية الأروقة ، كان لكل رواق مكتبته الخاصة ، بها مجموعة من بضعة آلاف مجلد ، وكانت أهمها مكتبة رواق المغاربة .

وفي العصر التركي تضاءلت أهمية المكتبة وسرق الكثير من محتوياتها النفيسة ، ولم يبق منها الاّ ما كان ملحقا بالأروقة . وفي أواخر القرن الماضي (١٣٤١ هـ - ١٨٩٧ م) في عهد مشيخة الشيخ حسونة النواوى ، أنشئت للأزهر مكتبة عامة بارشاد الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، تألفت نواتها الأولى من مجموعات الكتب التي وجدت بأروقة الجامع ، وهنا يجب أن نشير الى ما رواه السيد محمد رشيد رضا عن قصة انشاء هذه المكتبة في تاريخ الامام الشيخ محمد عبده حيث قال "كان في الأزهر خزائن كتب وضعت في بعض الأروقة والحارات ، وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفاكهاني ، جامع العيني ، ونيط حفظها جميعا بأشخاص يقال لهم المغيرون ، فتصرفوا فيها تصرفا سيئا للغاية صح معه اطلاق اسم المغيرين عليهم ،

لأنهم غيروا وصفها وشتتوا جمعها ، ومزقوا جلودها وأوراقها ، وتركوا ما لا عناية لهم به منها في التراب ، يأكله العث ويبليه التراب " .

وهذا غير ما تصرفوا فيه تصرف الملاك وصار بأيدى باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس ، ولم يبال المتصرف الأول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء .

هذا وتحتوى مكتبة الجامع الأزهر على أكثر من مائة ألف مجلد من أنفس المخطوطات والمطبوعات بعضها يرجع الى القرن الرابع الهجرى .

ومن أهم المكتبات التي أهديت الى مكتبة الأزهر ، مكتبة سليمان باشا أباظة (١٧٨١) وأغلب كتبها في التاريخ والأدب ، ومكتبة الشيخ حسونة النواوى (١٩٢٥) ، وأغلبها في الفقه ، ومكتبة ابراهيم حليم باشا (١٩١٢) وأغلبها في العلوم الاسلامية وغيرها .

وكان لجامع الزيتونة في تونس مكتبة عظيمة حوت ما لذّ وطاب من أنواع العلوم والفنون . وهناك العديد من المكتبات الملحقة بالمساجد ، حتى أن بعض الجوامع الكبرى كان لها أكثر من خزانة واحدة وفي هذا الصدد يذكر لنا ياقوت الحموى أنه كان يوجد في أيامه في مدينة مرو الشاهنجان خزانتان في الجامع

احد أهمما يقال لها العزيزية وفقها لرجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عقيق الزنجاني ، وكان داعيا للسلطان سنجر وكان فيها عشر ألف مجلد والأخرى يقال لها الكمالية .

وقد استجد الخليفة المستنصر بالله العباسي في أوائل القرن السابع الهجري بناء مسجد يعرف بالقمرية بالجانب الغربي من بغداد على شاطئ دجلة المقابل للرباط البسطامي ونقل اليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك ، وألحق بالمسجد خزانة الكتب وحمل اليها كتبا كثيرة .

وقد ولي المستنصر بالله العباسي عبد العزيز بن دلف أمير خزانة الكتب في مدرسته المستنصرية وكان قبلا خازنا لخزانة الكتب لمسجد الشريف الزيدى التي أنشأها الحسن علي بن أحمد الزيدى ٥٧٥ هـ وزودها بالكتب الكثيرة ، كما ساهم غيره بتزويدها .

وقد كان لزيد بن الحسن الكندى البغدادى خزانة كتب جليلة في جامع بني أمية ، وقد توفى زيد هذا سنة ٥٩٧ هـ .

ويبدو أن بعض العلماء اعتاد أن يوصي بكتبه كوقف في مسجد بلدته أو الحي الذى نشأ فيه فتوضع في خزانة خاصة في المسجد وتسمى باسمه ، ومن هؤلاء علي بن الطاهر السلمي الذى كان ثقة وكانت له حلقة في الجامع عليها خزانة فيها كتبه .

ويبد و أن هذه كانت عادة شائعة في هذه العصور حتى أن بعض الملوك ، والأمراء ، والأثرياء ، والعلماء ، كانوا يوقفون أشياء كثيرة على المساجد ومن جملة هذه الأشياء الكتب ، ويرد هنا اسم الكتب التي كانت بين الأشياء التي يوقفها الناس على المساجد ، فقد أنزل الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي الى جامع ابن طولون ٨١٤ مصحفا وكذلك ترك في وصيته عددا من الكتب للجامع الأزهر .

كذلك يجدربنا الاشارة الى احدى مكتبات المساجد في مصر العثمانية ، وهي مكتبة الأمير محمد بك أبو الدهب التي وقفها على طلبة العلم بجامعه المعروف في ميدان الأزهر الشريف في القاهرة ، وقد وقف محمد بك أبو الدهب مسجده لتدريس كل من الفقه على المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحديث والتفسير والفرائض والمنطق يختاره من أنواع العلوم ، وقف أيضا لمسجده مكتبة عامرة بالكتب القيمة وتصدق لله سبحانه وتعالى بجميع الكتب الشريفة الجليلة المعتبرة التي حوت القرآن الكريم وأنواع الفنون من تفسير وحديث وفقه وشروح وفنون وغير ذلك ، وقد وقف هذه المكتبة التي كانت في حيازته التي حوت نحو ستمائة وخمسين كتابا ، وقد أوصى ان ضاع كتاب من كتب الوقف أن يلزم الخازن تعويضه .

وفي العصر المملوكي وجدت في المساجد والجوامع والزوايا خزانات عامرة فيها كتب قيمة .

كذلك نجد المكتبة الظاهرية التي أسسها الظاهر بيبرس البندقداري ، وقد تمّ بناؤها سنة (٦٦٠ - ٦٦٢ هـ) ووقف بها خزانة جليلة اشتملت على أمهات الكتب في سائر العلوم ، رتبت بها عدة دروس للفقه الشافعي والحنفي والحديث والقراءات ، وقف عليها السلطان ريعه خارج باب زويلة وغيره من الأوقاف المبرورة .

كما بنى الظاهر جامعا خارج القاهرة في سنة (٦٦٥ - ٦٦٧ هـ) وهو المعروف بجامع العانية وكانت به خزانة كتب أيضا ، وقد وقف الشيخ الفقيه الفاضل يحيى بن عبد الوهاب بن عبد الرحيم الدمنهوري الشافعي (٧٢١ هـ) كتبه على خزانة هذا الجامع .

كذلك توجد مكتبة الجامع الكبير في القيروان (في تونس) وهو أكبر الجوامع في العالم الاسلامي وأكبر من الجامع الأزهر ، أنشأه المسلمون الأوائل الذين حرروا شمال افريقيا . وزاد عليه من جاء بعدهم ثم وسعه وأتم بناءه المعز بن باديس بن منصور في عهده الذى استمر من سنة (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) ، وقد ألحقت بهذا الجامع مكتبة ضخمة جارت وضاهت مكتبات قرطبة وبغداد واستمرت هذه المكتبة خلال هذه العصور ، واعتراها ما اعترى غيرها من الضياع والاهمال ، ثم اعتنت بها الحكومة التونسية سنة ١٩٤٠ م .

وهناك أيضا مكتبة الجامع الكبير في الجزائر ، ومكتبة الحرم النبوى في المدينة ، وفي السودان خزائن الكتب الملحقة بالمساجد ، ومكتبة جامع النجف الأشرف في بغداد ، ومكتبة الفاتح الملحقة بمسجد فاتح في استنبول التي بها نحو ستة آلاف مخطوط ، ومكتبة المسجد الأقصى بالقدس التي كانت قائمة منذ قرون عديدة يشرف عليها الآن المجلس الشرعي الاسلامي في القدس .

ونجد أيضا مكتبات الجامع الأعظم في القيروان وجامع القرويين في فاس ومكتبة جامع الحكمة في مراكش والجامع الأعظم في مكناس .

وبالطبع فهناك العديد من المكتبات التي ألحقت بالجوامع منذ قديم الزمن ، وذلك من أجل التزود بالمعرفة والعلم وقراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي عملت على انتشار الدين الاسلامي وتعاليمه القيمة عبر العصور في سائر أرجاء العالم الاسلامي ، وليس هذا غريبا في المجتمع الاسلامي الذى تمثل الاسلام وعرف قدر العلم ومكانته فهيأ له وسائله وأخذ بأيدى أهله الى أعلى الدرجات ، وليس عجيبا أن يسارع المسلمون الى انشاء المكتبات في المساجد والجوامع ، وما زالت المكتبات في المساجد تمثل دورا هاما في التعاليم الاسلامية في العصر الحديث .

خاتمة

ان ظهور المكتبات في الاسلام وتطورها كان نتيجة لانتشار العلم والمعرفة في العالمين العربي والاسلامي .

فالمكتبات في الاسلام هي ظاهرة من ظواهر المجتمع المتحضر انبثقت منه فنمت وتطورت وازدهرت بنمو وازدهار وتطور هذا المجتمع وقد ساهمت هذه المكتبات بشكل واسع في تطور هذا المجتمع وذلك بفضل حفظها لتراثه من ناحية وبما تقدمه من العلوم المختلفة التي تدفعه الى الرقي والتقدم من ناحية أخرى .

ان المكتبات الاسلامية تعكس لنا بوضوح المجتمع الاسلامي آنذاك بجميع جوانبها الاجتماعية والفكرية والثقافية والسياسية ، ازدهرت بازدهاره وانحطت بانحطاطه ، ومع ذلك فقد حفظت تراث الاسلام على مر العصور .

وكما تفاعل المجتمع الاسلامي مع المجتمعات الأخرى وانفتح عليها - سواء من أجل نشر الدين الاسلامي أو الانفتاح السياسي أو الاجتماعي - كذلك المكتبات في العالم الاسلامي تفاعلت مع المجتمعات الأخرى وذلك ، من خلال الثقافات الأخرى التي غزت تلك المكتبات في شتى فروع المعرفة بالاضافة الى العلوم الاسلامية والدينية .

ان حب المسلمين للكتب وولعهم بها قد دفعهم الى جمعها والمحافظة عليها بتأسيس المكتبات لها سواء أكانت خاصة أم عامة ـ ودفعهم الى شرائها وبأغلى الأثمان .

لقد تركت لنا المكتبات الاسلامية التراث الثقافي والفكرى والحضارى ، وتركت لنا المخطوطات والكتب القيمة النادرة لعظماء العرب من الأدباء والشعراء والكتّاب ، وها نحن اليوم نبحث عن الماضي العريق لنتزود منه العلم والمعرفة .

فلنبحث عن تراثنا ولنعد مجد الاسلام وحضارته ، ونسير على درب أجدادنا .

والله ولي التوفيق ،،،

قائمة المصادر

١ ـ أحمد أمين . ضحى الاسلام . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٩ .

٢ ـ أحمد حسن كحيل . دراسات في الحضارة الاسلامية . القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٧٠ .

٣ ـ أحمد سعيد الدمرداش . تاريخ العلوم عند العرب . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٧ .

٤ ـ ألفرد هيسيل . تاريخ المكتبات . ترجمة شعبان عبد العزيز خليفة . الرياض : دار المريخ للنشر ، ١٩٨٠ .

٥ ـ أنور الجندي . الموسوعة الاسلامية العربية . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٤ .

٦ ـ أنيس المقدسي . أمراء الشعر في العصر العباسي . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ .

٧ ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن . مقدمة ابن خلدون . بيروت : دار القلم ، ١٩٨١ .

٨ ـ عائشة عبد الرحمن . تراثنا بين ماض وحاضر . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ .

٩ ـ عبد الحليم النجار . تاريخ الأدب العربي . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦١ .

١٠- عبد الرزاق شاكر البدري . المكتبات عند العرب . مجلة عالم المكتبات ، السنة الرابعة ، العدد الخامس والستين ، ١٩٦٩ .

١١- عبد اللطيف ابراهيم . دراسات في الكتب والمكتبات الاسلامية . القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٦٢ .

١٢- عمر الدقاق . مصادر التراث العربي . بيروت : مكتبة دار الشرق ، ١٩٧٨ .

١٣- ابن الفوطي ، أبو الفضل عبد الرزاق . الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، تحقيق مصطفى جواد . بغداد : المكتبة العربية ، ١٩٣٢ .

١٤- محمد أبو الفضل ابراهيم . تاريخ الطبرى . القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٥- محمد أسعد طلس . المخطوطات وخزانتها في حلب . في مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج ١ ، ج ١ (مايو ١٩٥٥) .

١٦- محمد رستم ديوان . المكتبات في العالمين العربي والاسلامي . في مجلة المورد . المجلد الرابع ، العدد الرابع والعشرين ، ١٩٨١ .

١٧- محمد سعيد الطريحي . خزائن الكتب الاسلامية في الكوفة . في مجلة المورد . العدد الرابع ، المجلد التاسع ، ١٩٨٠ .

١٨- محمد عجاج الخطيب . لمحات في المكتبة والبحث والمصادر . دمشق : مطبعة الرياض ، ١٩٧٣ .

١٩- محمد ماهر حماده . المكتبات في الاسلام . بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٨ .

٢٠- ابن مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد . تجارب الأمم وتعاقب الهمم . القاهرة : شركة التمدن الصناعية، ١٩١٥ .

٢١- مصطفى الشيخ . من روائع حضارتنا . دمشق : المكتب الاسلامي ، ١٩٧٧ .

٢٢- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ليدن : ابريل ، ١٩٠٦ .

٢٣- ناجي معروف . تاريخ علماء المستنصرية . بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٥٩ .

٢٤- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن اسحق . كتاب الفهرست. بيروت : دار المعرفة ، ١٩٧٨ .

٢٥- ياقوت الحموى . معجم البلدان . القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٠٦ .

٢٦- يوسف العش . المكتبات العربية العامة وشبه العامة في بلاد ما بين النهرين وفي مصر في العصر الوسيط . في مجلة رسالة المكتبة ، المجلد السادس عشر ، العدد الأول ، ١٩٨٠ .

رقم الايداع لدى
مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
٨٧ / ٢ / ١٩٨٤